

الإشكالية المنهجية في أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة عرض وصفي - تحليلي

سيد محمد فارس*

ملخص: تقارب هذه الدراسة ما بعد الحداثة بوصفها ظاهرة ثقافية وفكرية غربية، جسدت نقداً عنيفاً صُوبَ إلى المبادئ والأسس المحورية التي نهض عليها مشروع الحداثة الغربي، وروجت لذاتها باعتبارها النقيض المضاد للحداثة. وتذيل الصفة "ما بعد حداثي" أو تُلحق بمنظومة مذهلة من الظواهر، تراوح بين الميديا أو وسائل الإعلام إلى العالم الذي نعيش فيه اليوم. ويمكن ببساطة تعريف ما بعد الحداثة وتعيينها بأنها الظروف والأوضاع المميزة لعدة عشرين ممن يعيشون في العصور ما بعد الحداثة الراهنة. وتتضمن هذه الظروف دوران وانتقال البشر والمعلومات والصور والأفكار بمعدلات غير مسبوقة. وتركز ما بعد الحداثة على توترات الاختلاف والتشابه التي تفرزها عمليات العولمة تلك. وتعد أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة أحد تيارات ما بعد الحداثة الرئيسة في العلوم الاجتماعية، وتنبذ محاور الأنثروبولوجيا العلمية الحديثة ومرتكزاتها (1920-1975) وتنقطع عنها بل تقلبها رأساً على عقب. ويحدد المنحى الفكري البارز في حركة ما بعد الحداثة في الاستخفاف بالعلم والتكنولوجيا الغربية، وينبثق عن هذا المنحى الرئيس بعض التيارات والقناعات الأخرى: (1) تمثيل الحياة الاجتماعية بوصفها نصاً. (2) الارتقاء بالنص واللغة إلى مستوى الظواهر التي لها وجود أساسي. (3) تطبيق التحليل الأدبي على جميع الظواهر. (4) مساءلة الواقع أو الشك فيه، وفي مدى كفاءة اللغة وقدرتها على وصف هذا الواقع. (5) ازدياد المنهج ورفضه. (6) رفض السرديات أو النظريات الكبرى الشاملة. (7) الدفاع عن تعددية الأصوات والآراء والمعارضة. (8) التركيز على علاقات القوة والهيمنة الثقافية. (9) رفض المؤسسات والنظم

* قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة بني سويف، جمهورية مصر العربية.

والمنجزات الغربية، خاصة العلم والعقل الغربي. (10) تبني موقف النسبية المتطرفة، والنزوع إلى العدمية. تركز هذه الدراسة على دعاوى ما بعد الحداثة المضادة للابستمولوجيا الحداثية، ومشكلة المنهج في أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة التي تثير نقداً وتطور استراتيجيات بحثية تجريبية جديدة مثل الإثنوجرافيا الانعكاسية، والإثنوجرافيا متعددة المواقع، والتفكيك والتأويل الحديسي، وهلم جرا.

المصطلحات الأساسية: أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة، المنهجية ما بعد الحداثة، التفكيك، التأويل، الإثنوجرافيا متعددة المواقع، إثنوجرافيا التصوير التجريبية، الإثنوجرافيا متعددة الأصوات، الإثنوجرافيا السردية، الإثنوجرافيا الانعكاسية.

المقدمة:

تثير أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة، منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، موجة عاتية من النقد والجدل المكثف حول المقولات والفرضيات الابستمولوجية والمنهجية القاعدية التي ينهض عليها النموذج الإرشادي للأنثروبولوجيا الحديثة (1920-1975). ويرفض أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة بازدرء مجرد استخدام كلمة "منهج"، ويؤكدون أنه ليس ثمة مناهج أو قواعد منهجية يتعين توخيها واتباعها والعمل في إطارها، وينحصر جلّ ما يطرحونه في نزعة معاداة المنهج والصرامة التشكيكية التي تميز مذهبهم. وفي رأيهم أن الأنساق المتمركزة حول العقل (اللوجوس) Logo-centric، التي تدعي القابلية للتحقق منها خارجياً أو أنها صحيحة في الواقع الخارجي، وتسعى إلى الوصول إلى حقائق متعالية مجاوزة للخبرة، هذه الأنساق وحدها هي التي تكون مشغولة بالمنهج. فقد قدمت الأنثروبولوجيا الحديثة طرائق واستراتيجيات لاختزال الظواهر إلى حقائق، ومن ثم رؤية الظواهر بطريقة متسقة منظمة (Rosenau, 1992: 116,117).

ينخر تيار ما بعد الحداثة في جسد الأنثروبولوجيا الحديثة ومركزاتها، وقد صار تأثيره في منهجية الدراسة الحقلية الأنثروبولوجية متعاضماً بعد أن شكك أنصاره في موضوعية هذه الدراسة وما أنتجت من إثنوجرافيات و مونوجرافيات كلاسيكية، وبعد أن أعادت تعريف الجماعات موضوع البحث الأنثروبولوجي الحديث وتحديدها من أمثال الثقافات والمجتمعات المحلية والمحلي. وكان من نتائج ذلك ظهور الإثنوجرافيا متعددة المواقع Multi-Sited وموضوعات أنثروبولوجيا العولمة مثل الكيانات عبر المحلية، ومناطق الحدود، والهجرات، والشركات عابرة القوميات،

ووكالات المعونة الأجنبية، واللاجئين، والفضاء والثقافة الإلكترونية Cyber-Culture والاتصال (Lewellen, 2002: 57). وتتميز المنهجية ما بعد الحداثة بأنها ما بعد وضعية أو حتى معادية للوضعية، وتثير شكوكاً وجدلاً حول المناهج الكيفية والكمية على السواء. على سبيل المثال يرفض أنصار ما بعد الحداثة البحث العملي أو الإجرائي و أسلوب الملاحظة بالمشاركة، لأنهما يتطلبان وجود " مؤلف " Author وسلطة أحادية في البحث والتفسير والكتابة - وهو ما يرفضه أنصار ما بعد الحداثة انطلاقاً من مقولة "موت المؤلف" و "موت الذات" - كما يفترضان وجود فعل. وبحثاً عن بدائل للمنهج العلمي يضع مابعد الحداثيون الإيجابيون⁽¹⁾ نصب أعينهم المشاعر، والخبرة الذاتية، والعاطفية، والانفعال، والحدس، والحكم الذاتي، والخيال، وأشكال الإبداع المتنوعة، واللعب، ويؤكدون فكرة الاستحالة المعرفية؛ بمعنى استحالة معرفة أي شيء في الواقع.

واضح أن لهذه الدراسة أهمية نظرية ومنهجية في آن معاً؛ إذ تتناول التطورات والتحولات الاستمولوجية والمنهجية التي تشهدها الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية منذ منتصف القرن العشرين. تلك التحولات التي طرحت رؤية أنثروبولوجية جديدة للعالم والواقع، وأعادت تقييم مرتكزات ميدان الأنثروبولوجيا المستقرة، وقدمت استراتيجيات وأساليب بحثية جديدة يدعو الباحث إلى تجربتها في الدوائر الأنثروبولوجية العربية، والتوسل بها في درس الواقع الاجتماعي والثقافي العربي.

(1) ينقسم أنصار ما بعد الحداثة إلى فريقين: أنصار ما بعد الحداثة الإيجابيون والمتشككون. يطرح تيار مابعد الحداثة المتشكك رؤية تشاؤمية سلبية قائمة لعصر ما بعد الحداثة باعتباره عصر التشظي والتفكك والفوضى، والمرض، واللامعنى، والغموض، وغياب المعايير الأخلاقية، والفوضى المجتمعية. ويستلهم أنصار هذا التيار مقولات الفلسفة الأوروبية؛ خاصة آراء نيتشة وهيدجر - وهو الجانب المظلم من ما بعد الحداثة - ويتحدثون عن موت الذات والمؤلف، واستحالة الحقيقة، وإدانة نظام التمثيل. فهم يذهبون إلى أنه لا توجد حقيقة، فليس هناك في رأيهم إلا إرهاب الحقيقة. كما لا توجد موضوعية، تراكم، وتعميم، ويرون أن التركيز لا بد أن ينصب على الخبرة الشخصية. كذلك يقرر المتشككون أن العلم الاجتماعي لن يصل إلى نموذج العلم الطبيعي. وأنه لا وجود لتاريخ معين؛ فالتاريخ نوع من الدعاية. أما ما بعد الحداثيون الإيجابيون، فيتفقون مع المتشككين في نقد الحداثة، ولكنهم يتميزون بنظرة ورؤية تفاؤلية آملّة لعصر ما بعد الحداثة. كما يريدون لحركة ما بعد الحداثة أن تكون حركة لتحرير الإنسان وتخليصه من البنى الشمولية؛ ويؤكدون ضرورة التركيز على التجارب الفردية، وعدم إهمالها، وهم يعيدون تعريف الحقيقة وتحديدها باعتبارها محلية، ومحددة ويؤكدون السرد (النظرية) المحلي واستراتيجية الحياة اليومية. وهكذا يعتبر الإيجابيون أكثر نجاحاً وأقل تهديداً من المتشككين؛ حيث يسعى الإيجابيون إلى تطوير فهم متحرر من الحقيقة، ومتحرر من النظرية؛ وذلك بعكس المتشككين الذين يسعون إلى تقويض الأسس الراسخة للعلم الاجتماعي.

أولاً - تساؤلات الدراسة وفروضها:

تهدف هذه الدراسة - تحديداً - إلى استيضاح طبيعة التحولات التي شهدتها دوائر الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية خلال النصف الثاني من القرن العشرين حتى يومنا هذا.

ويمكن صياغة هذا الهدف الرئيس في عدة تساؤلات على النحو التالي:

- 1 - ما مدى الانحراف الذي تظهره الأنثروبولوجيا ما بعد الحداثية المعاصرة عن النموذج الإرشادي الكلاسيكي والإطار المرجعي للأنثروبولوجيا الحديثة؟
- 2 - ما طبيعة وقسمات قوالب الفكر الكلاسيكي التي حملت في أطوائها تطلعات أنثروبولوجي الحداثة إلى تحقيق علمية الأنثروبولوجيا وموضوعيتها، والانتقادات مابعد الحداثية التي تنخر في جسد هذه القوالب النمطية الجامدة؟
- 3 - ما أبرز مقولات ورؤى أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة؟
- 4 - ما أهم الانتقادات مابعد الحداثية التي صوبت إلى منهجية الأنثروبولوجيا الحديثة؟

- 5 - ما البدائل ما بعد الحداثية المطروحة لمنهجية الأنثروبولوجيا الحديثة وأساليب البحث الإثنوجرافي؟

ويمكن صياغة أربعة فروض أساسية لهذه الدراسة على النحو التالي:

- 1 - تعد أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة نتاجاً لحركة النقد الداخلية المحتمدة في الأنثروبولوجيا منذ ستينيات القرن العشرين.
- 2 - تنبذ أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة مقولات الأنثروبولوجيا الحديثة وخطاب الأنثروبولوجيا العلمية.
- 3 - تقوض أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة منهجية الأنثروبولوجيا الحديثة.
- 4 - تتكامل البدائل المنهجية التي تطرحها أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة مع منهجية الأنثروبولوجيا الحديثة.

ثانياً - منهجية الدراسة:

توخى الباحث في مقاربة هذا الموضوع: أولاً، المنهج التاريخي النقدي الذي يقوم بعرض نشأة اتجاه ما بعد الحداثة وتطوره وتموجاته وجدليته. ويعتمد على أكبر قدر ممكن من الإحالات إلى المصادر الرئيسة والمراجع والنصوص

والدراسات. ثانياً، منهج تحليلي نقدي يستنتق الأمور، ويتحول من الواقع إلى الفكر. ثالثاً، تعتمد هذه الدراسة على تحليل مضمون الكتابات ما بعد الحداثية في الأنثروبولوجيا. وفي مناقشة العلاقة بين ما بعد الحداثة والأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية تدور المقاربة في فلك القضايا الآتية:

1 - السياقات التاريخية التي أفرزت ما بعد الحداثة وجعلتها قابلة للتطبيق في الأنثروبولوجيا.

2 - تاريخ ميدان الأنثروبولوجيا الأكاديمية.

3 - الكيفية التي بمقتضاها تنتج وتولد المعرفة وتضفي المشروعية عليها.

4 - جينيات الأفكار المتنوعة التي ترفد ميدان الأنثروبولوجيا وتوجهه.

5 - الخطابات التي حققت الهيمنة في الأنثروبولوجيا، ومتى كان ذلك.

ثالثاً - نتائج الدراسة:

يمكن تصنيف نتائج الدراسة في ضوء أهدافها إلى خمسة أقسام. يتناول القسم الأول نشأة أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة وتطورها وأهم مقولاتها. ويقارب القسم الثاني الإشكالية المنهجية في أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة وموقفها من أساليب البحث الحديثة. ويتناول القسم الثالث البدائل المنهجية مابعد الحداثة. أما القسم الرابع فيتناول النقد مابعد الحداثي لمعايير الحكم ومحكات التقييم الحديثة والبدائل المطروحة. ويتناول القسم الخامس تصورات حول مستقبل أنثروبولوجيا مابعد الحداثة.

(1) أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة (النشأة والمقولات المحورية):

اليوم تهيمن الاتجاهات ما بعد الحداثية على ميادين العلم الاجتماعي والإنسانيات المتنوعة. وهي تمثل تيارات فكرية تتجاوز ميادين العلم الاجتماعي الحداثي القائمة وتنقطع عنها، وتطور ممارسة ما بعد الميادين المتخصصة Post-disciplinary، وتهاجم أجندة العلم الاجتماعي الحديث الفكرية (Yeatman, 1994:1)، وتفرض تحديات لا نهاية لها في إطار رفضها الصارخ للفروض الاستيمولوجية الراسخة ودحضها للتقاليد المنهجية ودعاوى الحقيقة بمختلف صورها (Rosenau, 1992:4) فقد سرت نبرة النهاية والقطعية المعرفية في أوصال ميادين المعرفة كافة (Jameson, 1989:53)؛ ذلك أن ما بعد الحداثة - إذا

أرّخنا لها من لحظة ظهور كتابات فوكو في فرنسا أو نورمان براون في الولايات المتحدة - تزعم ما يطلق عليه فرانك كيرمود Kermode "الشعور بنهاية"، وتعلن ليس فقط "تفكيك الإنسان" ولكن "القطعية المعرفية" الجذرية (Bell,1989: 69).

ويشير ظهور ما بعد الحداثة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية إلى أكثر من مجرد ظهور نموذج إرشادي أكاديمي جديد. فما بعد الحداثة حركة ثقافية جديدة ومختلفة بصورة راديكالية تندمج وتتلاحم مع عملية إعادة تقييم واسعة النطاق للكيفية التي بمقتضاها نفهم العالم من حولنا ونفسره (Turner,1992:207). ويتضمن مصطلح ما بعد الحداثة تحقيقاً لنمط من الثقافة يلي أو يأتي بعد الحداثة ويتخذ من حقبة الستينيات لحظة انقطاع تشكل فيها نظام ثقافي جديد (Cheal,1996:10). ما بعد الحداثة، إذن، حركة فكرية تمثل ثمرة للحداثة ونقداً لها، وقد أسست لذاتها باعتبارها النقيض المقابل لحركة الحداثة الغربية (Harris,1999:153)، وتعلن أن الغرب قد دخل مرحلة تاريخية جديدة تتجاوز الحداثة وتتخطاها. وتعتبر البادئة الإنجليزية (Post) في مصطلح ما بعد الحداثة، في آن معاً، عن علاقة زمنية وفكرية بالحداثة. وبذلك تمثل ما بعد الحداثة منظوراً تاريخياً للحداثة والحداثة، وتعتبر عن حساسية نقدية حيالهما أو حيال حركة الحداثة التي تأسست في إطارها مثاليات ونماذج عصر التنوير ونالت قبولاً؛ ذلك أن الحداثة ترتبط بمقولات التنوير الكبرى: العلم، والعقلانية، والعمومية، وفكرة التقدم. وتؤكد أن الحداثة قد أقضت إلى فساد كبير، وذلك في مقابل تأكيدها تعددية الأساليب والأصوات ورفضها للنظرية الكبرى والأساق الفكرية المغلقة (Browning et al., 2000: 35; Waugh,1992:87).

انطلقت حركة ما بعد الحداثة في نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضي بعد أن تهاوت أفكار نهاية الأيديولوجيا. وبتأثير ثورة الطلاب والمد الماركسي برزت إرهاصات ما بعد الحداثة رافضة لميتافيزيقا الحضارة الغربية ومنتجاتها خاصة الحداثة والتحديث (Lash,1990:2). والحقيقة أن سقوط الشيوعية وما أحدثه من زعزعة للقناعات الراسخة المستقرة كان بمنزلة اللحظة الحاسمة في تحقيق ما بعد الحداثة للهيمنة الفكرية والأكاديمية كنموذج إرشادي ناضج. بيد أن مصطلح ما بعد الحداثة ذاته طرحه المعماريون في أواخر الأربعينيات تجسيداً للخروج على كل ما هو نمطي ومألوف (Harris,1999:153). وتضاف صفة "ما بعد الحديث" إلى حشد هائل من الظواهر التي تراوح بين الفنون والإعلام إلى العالم

الذي نعيش فيه. وتُستعمل مصطلحات ترتبط بهذه الصفة وتُشتق منها مثلاً لهذا مصطلح "ما بعد الحداثة". ويمكن الدفع بأن مصطلح ما بعد الحداثة قد أُسيء استعماله في سياقات وميادين عدة، وكشف عن مضامين ودلالات وتطبيقات متباينة ولا نهائية. "ويمكن ببساطة تعريف ما بعد الحداثة Postmodernity بأنها ظروف وأوضاع المعيشة أو الحياة السائدة خلال سنوات نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وتتضمن دورة البشر (من خلال وسائل النقل والمواصلات الهائلة)، ودورة المعلومات (عن طريق الحاسبات الإلكترونية والاتصالات)، ودورة الصور والأفكار وانتشارها (من خلال وسائل الإعلام والانفتاح الإعلامي). كل ذلك يتم اليوم بمعدلات غير مسبقة وبصورة متسارعة. وفي هذا المشهد العالمي صار التفاعل عبر الثقافي القاعدة والمعيار وليس الاستثناء، وهو ما قد يحتم حدوث تغيير جذري في طرق فهم الناس وإدراكهم للزمان والمكان، وعلاقة ذلك بالتفاعل بين المعرفة المحلية والكونية. من جانبها تركز ما بعد الحداثة على صور الاختلاف والتماثل المتولدة عن هذه العملية الكونية" (Bishop, 1996: 993). فاليوم تتضاءل أهمية الحدود السياسية وتتآكل، وتتيح التكنولوجيات الإلكترونية حركة انسيابية سريعة للسلع والمعلومات والأموال بمجرد الضغط على أحد مفاتيح تشغيل الحاسب الآلي. كذلك تسيطر موجات الاستعمار الإلكتروني Cyberimperialism على الثقافات المحلية، وتواجه الأنثروبولوجيا في هذا العالم سريع التغير تحدياً أساسياً يدفعها إلى إعادة التفكير في مسلماتها ومقولاتها التأسيسية وإعادة تحديد مشروعاتها وتعريفها بعد أن تهاوت دعاوى الثبات والاستمرارية والتوازن والتناغم في عالم ما بعد الحداثة سريع التغير (Harris, O., 1996: 1).

أفرز المناخ النقدي الذي خيم على الدوائر الأنثروبولوجية منذ ستينيات القرن الماضي⁽²⁾ خطاب أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة الذي يعتبر بمنزلة الذروة المنطقية

(2) اجتاز جيل الأنثروبولوجيين الأمريكيين الذين يحملون شعلة ما بعد الحداثة منذ الثمانينيات الدراسات العليا في أثناء الستينيات من القرن العشرين، وهو عقد ماج بحركات التمرد والشجب والاحتجاجات السياسية التي انطلقت مع حركة حرية التعبير عن الرأي Free Speech Movement في بيركلي في عام 1964 لتجتاح بقية الجامعات، وانتهت مع الانسحاب الأمريكي من سايغون في العام 1974. وتجادل شيري أورتنر بأن النقاد الشباب الراديكاليين عمدوا إلى تعرية الصلة الأتمة بين الأنثروبولوجيا والنزعة الاستعمارية، إلا أنهم سرعان ما انتقلوا إلى السؤال الأعمق حول طبيعة أطروا النظرية، ولا سيما الحد الذي تجسد فيه افتراضات الثقافة الغربية البرجوازية وتواصل تنفيذها.

لحركة النقد الداخلية المحتمدة في الأنثروبولوجيا والمتمثلة في تيارات الأنثروبولوجيا النسوية والماركسية والبنائية والمعرفية والرمزية والتأويلية التي تمثل في مجملها مقدمات فكرية نقدية لتيار أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة بعد إخفاقها قاطبة في مواجهة الانقسام والتمزق الحاد في الأنثروبولوجيا الكلاسيكية بين من يتشبثون بمشروع التنوير ومن يؤكدون التعددية والنسبية والتنوع. وقد أفضت هذه الحركة النقدية إلى ظهور أزميتين: ابستمولوجية وأخلاقية قادتا بدورهما إلى ظهور أزمة التمثيل التي صارت منطلقاً لاتجاهات ما بعد البنائية وما بعد الحداثة، تلك الاتجاهات التي استلهمت تطورات ما بعد حداثة أخرى في ميادين العمارة والنقد الأدبي والفلسفة والفنون والتاريخ؛ لذلك تتقاطع معها في كثير من المقولات والرؤى (McGee and L'Warms, 1996:480).

وتمثل ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا نقطة التقاء أربعة اتجاهات نظرية - انظر الجدول (1). وتعد أحد تيارات ما بعد الحداثة العامة التي تجتاح العلوم الاجتماعية بقوة منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وتنادي بموت العلم الاجتماعي الحديث. ويشير هذا التيار إلى لحظة انقطاع ابستمولوجية وميثودولوجية (تعرف بقطعية ما بعد النموذج الإرشادي) عن الأنثروبولوجيا الحديثة. ويؤكد نسبية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ورفض دعاوى علمية الأنثروبولوجيا، وضرورة الاعتراف بالذات في علاقتها بالموضوع، وينظر إلى الحيادية والموضوعية بوصفها وهماً زائفاً. ويثير هذا التيار جدلاً واسع النطاق حول عدد من القضايا، من أهمها: مشروعية دراسة الآخر الثقافي وتمثيله والكتابة عنه، وتعددية الآراء والأصوات ووجهات النظر، والخيال الأنثروبولوجي، والانعكاسية، وسقوط النظرية الكبرى، وموت الواقع، وإرهاب الحقيقة، والمنهج الحديث والوضعية العلمية، وكتابة الثقافة، وهلم جرا.

جدول (1)
ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا نقطة التقاء
أربعة اتجاهات نظرية

أهم المقولات والرؤى	المصطلحات الأساسية	أهم الأعمال	
– يتطلب أسلوب "الوصف المكثف" دراسة عقلية امبيريقية مكثفة متعمقة، وينكر إمكانية تحقيق الموضوعية العلمية، كل التفسير أو التأويل سياقي. – الإثنوجرافيا نص أدبي. – تحليل الأنساق الرمزية بقصد فهم الثقافات كما تتم الخبرة بها. – تبحث وتحاول التعبير عن وجهة نظر الآخرين (المبحوثين) بدرجة أكبر من الباحثين.	– الوصف المكثف. – النص. – النموذج الإرشادي (الثقافي). – أنساق المعنى.	Geertz C., "The Interpretation of Cultures", especially, "Deep Play, Notes on a Balinese Cockfight"	الأنثروبولوجيا التأويلية
– تكشف التمثيلات الأنثروبولوجية أكثر عن الباحث الإثنوجرافي بدرجة أكبر من الناس قيد الدراسة. – يقود قصور وتحييد الانعكاسية إلى مفهوم زائف خاطئ للموضوعية. – الأنثروبولوجيا متموضعة في الحقبة الاستعمارية وما بعد الاستعمارية، أي أنها مرتبطة بالسياق الاستعماري الكلاسيكي والجديد.	– الانعكاسية. – أزمة التمثيل. – المعرفة السياقية.	Clifford and Marcus, "Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography"	الأنثروبولوجيا النقدية

تابع / جدول (1)
ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا نقطة التقاء
أربعة اتجاهات نظرية

أهم الأعمال	المصطلحات الأساسية	أهم المقولات والرؤى	
Jameson F., "Postmodernism or The Cultural Logic of Late Capitalism"	- التأويل. - التفكيك. - التجزؤ والتشظي. - الانقطاع. - الهجين.	- التقابلات بين حداثة التنوير (التقدم عن طريق العقلانية، والتكنولوجيا، والعلم). - رفض السرديات أو النظريات الكبرى. - الذاتية، والانطباعية Impressionism التي تحظى بأهمية عن موضوعية الزائفة. - رفض التمييز بين الثقافة العليا والدنيا. - الواقع متشكل اجتماعياً والمعرفة نسبية.	ما بعد الحداثة
Escobar, "Encountering Development"	- الخطاب. - المعرفة. - القوة. - النظرة المحدقة الفاحصة.	- دراسة خطاب الفترات الزمنية التاريخية، والنظم. - التركيز على الاستمولوجيا واللغة. - رفض الدعاوى والمقولات العامة لبنائية كلود ليفي ستروس. - التأكيد على القوة (السلطة) باعتبارها عنصراً متأصلاً في كل الخطابات.	ما بعد البنائية

تتبع إدوين أردنر Ardener الامتداد الزمني للحداثة في الأنثروبولوجيا بداية من نشر دراسة مالفينوفسكي "مغامرو المحيط الهادي" (Strathern, 1987: 864)، وحتى انحسار التأثير البنائي وتراجعها في منتصف السبعينيات من القرن

العشرين. معنى ذلك أن الحداثة المبكرة في الأنثروبولوجيا قد انطلقت في مطلع عشرينيات القرن الماضي، وهي الفترة ذاتها التي شهدت تبلور معالم الأنثروبولوجيا العلمية، وظهر فيها مونوجراف مالمينوفسكي الذي كان بمنزلة إعلان لموت الشكل أو القالب المقارن للخطاب الأنثروبولوجي عند جيمس فريزر. هذا، وقد أدى فرانز بواس دوراً مهماً في إرساء قواعد الدراسة الحقلية ونقد النص التطوري المقارن (Manganaro, 1990:4). ولا غرو أن ترافقت الأنثروبولوجيا مع الحداثة الغربية، بل اضطلعت أيضاً بدور مهم في خدمتها بعد أن عمقت الأنثروبولوجيا نمطية الأنا الغربي/ الآخر غير الغربي بقصد تأكيد حداثة الغرب وتقدمه من جانب، وتخلف الآخر غير الغربي وبدائيته من جانب آخر. وإذا كانت الأنثروبولوجيا وليدة الحداثة فإن نماذجها تركز للهيمنة الاستعمارية والرأسمالية (Herzfeld, 2001:38-39). وتشترك الأنثروبولوجيا الحديثة مع الحداثة الغربية في كل قسماتها ومعالما تقريباً. وتتحدد أهم معالم الحداثة الأنثروبولوجية وأبرزها في تبني نظرية التمثيل تدعي إمكانية تمثيل ثقافات الآخر غير الغربي ومجتمعاته بطريقة موضوعية واقعية شفافة، وتبني منظور الوضعية العلمية، وتأكيد وجود نظريات عامة شاملة لها القدرة على التفسير اللامحدود وتحمل في طياتها الحقيقة. وتشير كذلك إلى ضرورة الاعتماد في كتابة الإثنوجرافيات على المونوجراف والأسلوب الواقعي بهدف تمثيل العالم الواقعي القابع بالخارج هناك، وإلى ضرورة الاعتماد على أساليب وأدوات موضوعية، والتعويل كلية على سلطة الإثنوجرافي في البحث، والتفسير، وكتابة الإثنوجرافيا.

ارتأى بعض النقاد أن أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة تنتمي إلى الحداثة المتأخرة، لا إلى ما بعد الحداثة نظراً لشمولها كثيراً من مقولات ما بعد البنائية. في حين يقرر البعض الآخر أن الأنثروبولوجيا كانت دوماً ما بعد حداثة وذلك انطلاقاً من أن رؤى النسبية الثقافية، بخاصة نموذج فرانز بواس الإرشادي، قد شكلت دعامة الممارسة والنظرية الأنثروبولوجية. إضافة إلى ما كشفت عنه الدراسات الحقلية في مطلع القرن العشرين من تنوع الثقافات وتعدديتها، وكذا العلاقة الخاصة بين الباحث الإثنوجرافي والمبحث في الممارسة الإثنوجرافية. المؤكد، إذن، أن الإطار الفكري ما بعد الحداثي قد عضد النزعات الراديكالية المحتدمة في الأنثروبولوجيا منذ الستينيات (Marcus, 1998:183) فقد تواسجت أنثروبولوجيا ما

بعد الحداثة مع النقد القوي الموجه للبلاغة والكتابة الإثنوجرافية، ذلك النقد الذي استجمع، وأعاد الربط بين ثلاثة خيوط أو تيارات نقدية منفصلة. وتتجسد هذه التيارات التي تطورت في الأنثروبولوجيا الأنجلو-أمريكية:

1 - تيار يشير إلى انكشاف فوضى الدراسة العقلية باعتبارها إحدى منهجيات العلم الاجتماعي؛ وذلك بعد تدفق الأوصاف والتقارير التجريبية والاعترافية.

2 - تيار يربط الأنثروبولوجيا بالسياق في تاريخ الحركة الاستعمارية.

3 - تيار النقد الهرمنيوطيقي أو التأويلي للأساليب الأنثروبولوجية في تفسير اللغة والثقافة والرموز (Marcus, 1998: 182).

كشف هذا النقد عن أوهام اليقين في فكر الحداثة عموماً وفي الأنثروبولوجيا الحديثة على وجه الخصوص، ومنها تفوق الحضارة الغربية ووصمها الثقافات والشعوب الأخرى بأنها بدائية أو تقليدية أو أمية أو بسيطة، وكذلك تصور الآخر بوصفه جامداً ثابتاً يعيش في سياق ثقافي استاتيكي خاو من الصراع والتناقض. "وقد أدت الحقبة ما بعد الاستعمارية إلى تصدع الثقة في الأيديولوجيات الحداثية، وذلك حين أجبرت القوى الغربية على التخلي عن هيمنتها وسطوتها على الثقافات غير الغربية بعد أن جثمت على صدرها زمناً طويلاً. وكان من نتيجة ذلك الاعتراف بقدرة الآخر الثقافي على تمثيل ذاته وإحداث تغييرات وتحولات في مسار التاريخ الإنساني" (Ardener, 2000: 2-3). وتكشف القرائن عن أن ميلاد ما بعد الحداثة قد جاء بعد تحرر الآخر الثقافي من سلطة الأنا الغربية.

يتحدد المنحى الفكري البارز في حركة ما بعد الحداثة في الاستخفاف بالعلم والتكنولوجيا الغربية، وينبثق عن هذا المنحى الرئيس بعض التيارات والقناعات الأخرى (انظر جدول 2) يمكن إيجازها فيما يلي:

- 1 - تمثيل الحياة الاجتماعية بوصفها نصاً.
- 2 - الارتقاء بالنص واللغة إلى مستوى الظواهر التي لها وجود أساسي.
- 3 - تطبيق التحليل الأدبي على جميع الظواهر.
- 4 - مساءلة الواقع أو الشك فيه، وفي مدى كفاءة اللغة وقدرتها على وصف هذا الواقع.
- 5 - ازدياد المنهج ورفضه.

جدول (2)

ما قبل - أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة	أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة
التنوير (خطاب عصر التنوير).	الخطاب ما بعد الحداثي.
العلم والتكنولوجيا.	دراسات تتناول العلم والتكنولوجيا وتنتقدتهما.
السرديات الكبرى - النظرية الكبرى.	السرديات الصغرى (الميكرو) والمحلية.
الحديث، الكلام، النموذج الإرشادي، النظرية، الثقافة، المجتمع، اللغة، الحوار، الاتصال.	الخطاب Discourse.
هاريس، تيرنر، جيرتز.	فوكو، دريدا، بودريار، تايلر، كليفورد، ماركوس، رابينو.
السبب والنتيجة.	التفتت - التشظي - الانقطاع.
النساء.	النوع.
التحليل.	التفكيك.
منظور وجهة النظر الأرشميديسية.	المعرفة السياقية.
الثنائية الثقافية Bicultural.	الهجين.
التنمية.	خطاب ما بعد-التنمية.
التحليل.	الهرمنيوطيقا (التأويل).
الواقع.	الذاتيات.
الفكر.	الانعكاسية.
فيزياء نيوتن.	مبدأ Heisenburg.
المعرفة.	دعوى المعرفة.
القوة، المعرفة.	القوة / المعرفة.
التمثيل.	أزمة التمثيل.
الإثنوجرافيا.	خطاب - ميكرو منعكس على الذات يدور حول استحالة كتابة الثقافة من منظور أرشميديسي.

- 6 - رفض السرديات أو النظريات الكبرى الشاملة.
- 7 - الدفاع عن تعددية الأصوات أو الآراء والمعارضة.
- 8 - التركيز على علاقات القوة والهيمنة الثقافية.
- 9 - رفض المؤسسات والنظم والمنجزات الغربية، خاصة العلم والعقل الغربي.
- 10 - تبني موقف النسبية المتطرفة، والنزوع إلى العدمية (Harris,1999:153-154).
- وقد حدد جيمس بيكفورد Beckford أبرز ملامح ما بعد الحداثة فيما يلي:
- (1) رفض المحكمات الوضعية والأداتية والعقلانية للمعرفة أو حتى لتقييم المعرفة،
- (2) تأكيد الانتقائية والتلقائية واللعب والتفتت والتجزؤ والسطحية والمعارضة (Heelas,1998:4).
- واضح - على ضوء ذلك - أن ما بعد الحداثة تؤكد التعددية غير القابلة للاختزال: تعددية الثقافات والتقاليد المجتمعية، والأيديولوجيات، وصور الحياة، وألعاب اللغة، والنظريات، والأنساق الفكرية، والمعايير، وهلم جرا؛ ذلك أن الأشياء في عالم ما بعد الحداثة تتسم بطبيعة تعددية ولا يمكن ترتيبها في تسلسل زمني تطوري يظهر بعضاً منها على أنه أسمى ومتفوق على بعض آخر أدنى. كذلك لا يمكن تصنيف بعض الأشياء باعتبارها صحيحة أو خاطئة، أو باعتبارها حلولاً صحيحة أو خاطئة لمشكلات معينة. يعني ذلك ضمناً صعوبة أو حتى استحالة تقييم المعرفة خارج سياق الثقافة والتقليد وألعاب اللغة التي تسبغ المعنى على هذه المعرفة. ومن ثم ليس ثمة معايير ومحكات للصحة والصدق تصلح للتطبيق خارج سياقها، أو يمكن تبريرها خارج سياقاتها الأصلية (Bauman,1988:225-26). وتشير التعددية في حركة ما بعد الحداثة إلى مجتمع مكون من جماعات وثقافات مختلفة ومتنوعة، ولا توجد جماعة واحدة تتمتع بسيطرة كاملة أو سلطة مطلقة. وقد كان هذا الالتزام بالتعددية نتيجة منطقية لتحليلاتها التي انتهت إلى رفض السرديات الكبرى والأنساق الفكرية المغلقة ونبذها جانباً.

وتجسد ما بعد الحداثة، في رأي ليوتار، "نزعة الشك والارتباب في كل السرديات أو النظريات الكبرى التي تهدر حقيقة التنوع الثقافي، وتنضوي على حتمية موهومة، ولا تعدو أن تكون خيلاً أو روايات خيالية "Fictions" (Reddy,1992:135)؛ ذلك على الرغم من أن هدفها المعلن هو توليد وإنتاج المعرفة

التي تحرر البشر من براثن الوهم والماضي، وتزعم أنها عامة شاملة فيما يتعلق بالحقيقة والتطبيق (Bishop,1996:994). وتتحدى ما بعد الحداثة كل رؤى العالم الكونية الشاملة، سواء كانت سياسية أم دينية أم اجتماعية، كما تختزل الماركسية والمسيحية واليهودية والفاشية والستالينية، والرأسمالية، والديمقراطية الليبرالية، والمذهب الإنساني العلماني، والإسلام، والعلم الحديث إلى نظام أو فئة واحدة، وتنبذها جميعاً باعتبارها سرديات كبرى شاملة ومتعالية، ومتمركزة حول العقل (اللوغوس). يعني ذلك قبول النسبية الفلسفية الجديدة وغياب اليقين (Rosenau,1992:6). وتتبنى ما بعد الحداثة موقفاً يتميز بوجود نظريات متعددة أو كثرة من النظريات دون أن تدعي إحداها تفوقها واستعلاءها على النظريات الأخرى. وتوجه نقداً منهجياً عميقاً وشاملاً للنظرية الحديثة باعتبارها مشروعاً شاملاً يؤكد الكل الاجتماعي بصورة تعلق على الأجزاء الفردية (Rosenau,1992:81)، وعلى التجانس والتماثل والتكامل والانتظام الذاتي (Geuijen,1995:2) في حين تؤكد ما بعد الحداثة الاختلاف وتفرد الأجزاء لا وحدة الكل النظري، واللاتجانس والتشظي والتفتت في مقابل الكلية، واللامركزية والمراوغة العلمية في مقابل القوانين العامة واليقين والتعميمات (Escobar,1993:383). علاوة على ذلك ارتأى جورج ريتزر أن "النظرية الاجتماعية الحديثة تبحث دوماً عن أساس تاريخي عقلاني وعام في تحليلاتها ونقدها للمجتمع والثقافة، في حين ترفض ما بعد الحداثة الاعتقاد بوجود أساس، وتميل إلى تبني موقف نسبي، لاعقلاني، عدمي" (Ritzer,1996:473). وتفترض النظرية الحديثة وجود واقع ابستمولوجي معين، وهو واقع غير موجود على ما يذهب بوديلار، ويُفترض فيها أن تعمل بلا أدنى تغيير في أي سياق، وهو أمر يثير الريبة والشك في عالم ما بعد الحداثة دائم التغير والتحول (Rosenau,1992:81). ويشير ما بعد الحداثيون إلى أن قوانين النظرية وتعميماتها نسبية من ناحية السياق، وأن أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة نسبية بمفهوم جديد، إذ تذكر إمكانية احتواء خطاب ثقافي معين لخطاب تقليد ثقافي آخر، كما ترفض الدمج والصهر الهيجلي والعلمي للآفاق، واختزال جميع التراثات (التقاليد) إلى شكل واهتمامات الخطاب الغربي

(Tyler, 1984:328). وحري بالذكر أن ما بعد الحداثة لا تتعامل مع الأشياء على حقيقتها وإنما تتعامل مع الرموز والصور، وتتبنى فكرة "الصور الزائفة" Simulacra؛ أي وجود نسخة من نسخة وليس هناك أصل، ومن ثم لا يبقى هناك تمييز بين الواقع الحقيقي والنموذج؛ بمعنى أنه ليس ثمة واقع حقيقي بعد أن تحول الواقع إلى صورة، وهم أو أي شيء زائف، كل ذلك يقوّض الأساس الابستمولوجي الراسخ الذي ترتكز عليه النظرية الأنثروبولوجية الحديثة.

ويتضمن النقد الجذري الذي صوّبه المشككون من أنصار ما بعد الحداثة إلى النظرية - الحديثة حزمة من الشكوك والالتهامات والرؤى، من أهمها: أن النظرية الأنثروبولوجية الحديثة قد أسهمت في تعميق نمطية الأنا الغربي والآخر الثقافي (Trouillot, 1991:17)، كما أقضت النظرية الأنثروبولوجية إلى إخفاء أصوات الآخر وحجبها، وتشويه الثقافات وإغماضها، وكسر ألفة Defamiliarization الظواهر الثقافية والاجتماعية، وإغرابها أو إضفاء طابع الغرابة عليها، وتتميز النظرية الحديثة بالتفاوت وعدم الانسجام واللاتناغم والتنافر (Rosenau, 1992:81)، وتعني إقصاء وفرض السيطرة والنظام على القوى المنافسة وتتسم بالتسلطية (Bilton and Bonnett, 1995:645) "وتهدف إلى تأسيس صوت سيادي والبحث عن أساس ثابت، وتتميز بالاحتمية الإطلاقية واليقين، بمعنى تأكيد أن اختياراتنا وأفعالنا هي نتائج لسلاسل سببية معينة، وهو ما يحتم نظرية معينة" (Honderich, 1996:120). كذلك تتميز النظرية الحديثة بالتمركز حول اللوجوس، ويعني رفضها التحرر من الانشغال بالسلطة والهيراركية والقوة والانعقاد من اهتمام العلم الحديث بالنظام والاتساق والقابلية للتنبؤ. وتتميز النظرية الحديثة بأنها بلاغية على الرغم من الزعم بكونها علمية؛ (ذلك أن العلم الحديث هو مجرد منتج ثقافي)، وبالتناقض والتعارض، وبإهدار خصوصية الثقافة وتشويهها من منطلق شمولية التفسير والتعميم ومن ثم قمع الأصوات المحلية وشظايا الواقع والخطابات والهويات الأخرى وهو ما كشفت عنه تفكيكية جاك دريدا (Nicholson and Seidman, 1996:251)، وتتسم النظرية بكونها أيديولوجية وترتكز على منظور الكليات أو المنظور القياسي الشامل. وكان من نتائج هذه الانتقادات أن عمد أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة إلى إزاحة النظرية الكبرى وإقصائها عن المركز والاستبدال بها تفصيلات الحياة اليومية والسرد المحلي والسرديات الصغرى والوصف المكثف.

لا يخالجنا شك، إذن، في أن ما بعد الحداثة ترفض العموميات كلية على أساس أنها غير موضوعية وغير واقعية، ومن ثم ترفض الثوابت، القيم الاجتماعية والمثل والقواعد والمبادئ والنظام، وتثير شكوكاً حول اليقين من أي نوع، وترفض العقلانية التي تؤدي إلى الاحتكار التعسفي للحقيقة (Wagner, 2001:21). يعني كل ذلك بالضرورة تأكيد النسبية في النظر إلى الثقافة والمجتمع والتاريخ، والتعددية والتنوع والكثرة الهائلة لأشكال الموجودات الاجتماعية والثقافية والمعرفية، والتجزؤ والتفتت واللاتجانس.

إن مجتمع ما بعد الحداثة مجتمع ما بعد تاريخي يتألف من تنوعات يتعايش فيها "الهنا" و"الهناك"، القديم والحديث دون مزاعم في الهيمنة. وتؤكد ما بعد الحداثة أهمية التقليدي والمقدس والخاص واللاعقلاني وتدعو إلى عودة القوميات والخصوصيات والأصوليات الدينية خاصة في البلدان الخاضعة لقوى التحديث الإجمالي. كما أن كل ما نَحْتَهُ الحداثة جانباً - الانفعالات والمشاعر والحدس والتأمل والتخمين والخبرة الشخصية والعادة والعنف والميتافيزيقا والتقليد والكوزمولوجيا والسحر والأسطورة والعاطفة الدينية والخبرة الروحية الباطنية - توليه ما بعد الحداثة اهتماماً وأهمية بالغة (Rosenau, 1992:6). وتنظر ما بعد الحداثة بحنين على الماضي تتأمله وبخاصة الثقافة الشعبية للعصور قبل الحديثة، وهي الثقافة التي تتميز بتوجيه الذات وعملية إعادة إنتاج ذاتية. وتنتقد مفهوم التقدم الذي اعتبرته الحداثة غاية وقيمة، وترفض فكرة الزمن الخطي وتؤكد أن حدوث الأشياء محكوم باتجاهاتنا المتغيرة حيال عمليات الاختراع والتكرارات والاتجاهات ذاتها في تغير مستمر، وأن ثمة تحولاً حدث من فكرة المستقبل إلى الحاضر الممتد (Nowotny, 1994:70).

وترفض ما بعد الحداثة فكرة وجود حدود أكاديمية صارمة بين العلوم الطبيعية والإنسانيات والعلوم الاجتماعية، بين الفن والأدب، بين الثقافة والحياة، وبين الصورة والواقع في كل ميادين النشاط والمعرفة الإنسانية (Rosenau, 1992:7)، وترفض كذلك أساليب الخطاب الأكاديمي التقليدي وتفضل الأشكال والقوالب الجريئة والمثيرة للأداء وتوصيل الرسالة، والعناصر الحيوية المثيرة في النوع الأدبي والأسلوب والعرض؛ ذلك أن أساليب العرض ما بعد الحداثيّة قد صُممت لإثارة النشاط غير التقليدي، والجديد للقراءة والواضح كذلك أن توصيل الرسالة ما بعد الحداثيّة يتميز بالصبغة الأدبية على خلاف الخطاب الحديث

الذي يسعى دوماً إلى أن يكون دقيقاً برجماتياً صارماً وعلمياً في أسلوبه (Rosenau, 1992:7). ويركز العلم الاجتماعي ما بعد الحداثي على خطابات بديلة ومعنى بديل، وليس على أهداف وخيارات وحلول واتجاهات شخصية، ويؤيد إعادة التركيز على البديهيات، والجوانب والأشياء المهملة والمهمشة، ومناطق المقاومة، والأشياء المنسية، واللاعقلاني، والأشياء التي لا معنى ولا دلالة لها، وكل ما يخضع للقمع والإخضاع، والحدود والهوامش، والكلاسيكي، واللامركزي، والضعيف والصامت والمفكك المشتت، والخصوصية، وفكرة المجتمع المحلي. ويهدف ما بعد الحداثيون إلى تحديد موقع "المعنى" وتعيينه وليس الكشف عنه، ويتجنبون إصدار أحكام ولا يدافعون عن شيء أو يرفضونه، بل يوضحون اهتمامهم بشيء أو ظاهرة معينة، ومن ثم، فهم يطرحون قراءات لا "ملاحظات"، تأويلات لا نتائج نهائية، كذلك لا يعتمدون إلى اختبار أي شيء؛ لأن ذلك يتطلب دليلاً والدليل مفهوم لا معنى له في الإطار المرجعي ما بعد الحداثي. إن ما بعد الحداثة تعيد ترتيب مشروع العلم الاجتماعي وصياغته، وتعارض نوي القناعات الحداثية الذين يحاولون عزل العناصر وتحديد العلاقات وصياغة مركب. ويقدم ما بعد الحداثيون "المراوغة" لا "الحتمية"، التنوع لا الوحدة، الاختلاف لا التماثل، والتعقيد لا التبسيط، ويبحثون عن الخاص المتفرد وليس عن العام، وعن العلاقات البينية وليس عن السببية. وهكذا يصير العلم الاجتماعي ما بعد الحداثي أكثر ذاتية وتواضعاً، تحل فيه الثقة في العاطفة محل جهود الملاحظة غير الجزئية. وهنا تعد أية محاولة لتطبيق نموذج العلم الطبيعي ومناهجه جزءاً لا يتجزأ من العلم الذي يرفضه أنصار ما بعد الحداثة ويكشفون النقاب عن مضامينه الأيديولوجية والدور الذي يضطلع به في السيطرة على شعوب الآخر غير الغربي وثقافته، والتدمير والتهديد بكوارث نووية وإبادة جماعية (Friedman, 1992:856). ومن الرؤى ما بعد الحداثية باللغة التأثير في النظرية والممارسة الأنثروبولوجية: رفض الثنائيات وعمليات التمثيل الأنثروبولوجي الحديث للثقافات، وكذا الحقيقة التي يعتبرونها اختراعاً خالصاً؛ وذلك من منطلق أن الأنثروبولوجيا في رأيهم ت اخترع وتبتدع الظواهر قيد الدراسة. وترتبط الحقيقة، من منظور ما بعد الحداثة بالقوة؛ إذ من الوهم افتراض وجود حقيقة خارج علائق القوة والسلطة (Lynch, 2001:291)؛ ذلك أن إنتاج الحقيقة تخترقه وتتخلله علاقات السلطة؛ كذلك تكمن الهيمنة في الخطاب، والحقيقة هي نتاج لألعاب القوة يمارسها أشخاص يخدمون مصالحهم الخاصة، ولا تمايز أو انفصال بين الحقيقة والأيديولوجيا.

ولا يغيب عن عين الرائي أن الانقسام والانفصال الواضح بين الحداثة وما بعد الحداثة يتجلى عند النظر إلى علاقتهما بمفهوم الحقيقة. فبالنسبة للحداثة ومثاليات التنوير تعد الحقيقة واحدة مفردة وعامة وتوجد في العالم الخارجي (في الخارج هناك)، وتنحصر مهمة الأكاديميات في التوصل بمناهج وأساليب معينة بقصد الوصول إلى هذه الحقيقة وتمثيلها للآخرين. ولكن الحقيقة، من منظور ما بعد الحداثة، تتخلق وتتولد تعاونياً من خلال عملية التفاعل الحواري، وهي قابلة للتأويل، وترتكز على المنظورات و الذاتيات الداخلية والسياقات الثقافية/التاريخية الخاصة والمحدودة. وهكذا يعيد ما بعد الحداثيون صك الحقيقة الحداثية الأحادية-المفردة والمتعالية، وصوغها في قالب جديد قوامه الحقائق المتعددة والمشروطة والمحددة بالسياق الثقافي والتاريخي (Bishop, 1996:994). وينكر أنصار ما بعد الحداثة المتشككون وجود الحقيقة أو حتى إمكانية الوصول إليها، ويعلنون لامبالاتهم وعدم اكتراثهم بكل المشروعات التي صممت و كُرس لاكتشاف الحقيقة، فهم يرون أن الحقيقة إما أن تكون بلا معنى أو تفتقر إلى معنى وإما أن تكون تعسفية. وعند المشككين النتيجة واحدة؛ فهم يرون أنه ليس ثمة اختلاف بين الحقيقة والأشكال الواضحة والمشوهة للبلاغة والدعاية. وهنا يقرر جاك دريدا Derrida أنه "لا وجود لشيء اسمه الحقيقة في ذاتها، ولكن ما يوجد هو جزء أو مقدار كبير من هذه الحقيقة... فالحقيقة متعددة" (Rosenau, 1992:78).

ويقرر أصحاب الأنثروبولوجيا التأويلية أن "الإنثوجرافيات الواقعية خيال أو روايات خيالية مقنعة، وأن كل الحقائق مركبة أو مصنوعة" (Clifford, 1986b:6). ويقرر أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة، بناءً على ذلك، أن الإنثوجرافيات والكتابة الأنثروبولوجية خيال أو رواية خيالية ترتكز على دراسات عقلية، معنى ذلك أنه لا وجود لحقيقة في الأنثروبولوجيا، والأبرز من ذلك الزعم بأن الأنثروبولوجيا ذاتها خيال أو رواية خيالية (Schmidt, 1984:11). بالإضافة إلى ذلك تعد الحقيقة من منظور ما بعد الحداثة نسبية ومحلية ومتعددة وتأويلية وغير محددة (Harris, 1999:156). ويصور كرابانزانو Crapanzano الإنثوجرافيين في صورة مخادعين أو محتالين يعدون، مثل هيرمز Hermes، بعدم الكذب ولكنهم لا يتعهدون أبداً بقول الحقيقة كاملة. وتقوي بلاغتهم الرسالة المنقوصة التي يوصلونها، وتعد في الوقت نفسه معولاً يهدمها ويقوض أركانها. معنى ذلك أن الحقائق الإنثوجرافية جزئية منقوصة ولا تجسد معرفة كلية شاملة ولكنها معرفة منقوصة تفرزها استراتيجيات الإقصاء والحذف والكتمان والإخفاء (Clifford, 1986b:7-8). وتعتبر

هذه الرؤى كافة إفراناً لتفكيك الحقيقة بصورة راديكالية واعتبارها مجرد تأويلات، بعد أن أصبحت المعرفة مجرد تقاليد وأعراف اجتماعية شيدتها الناس بواسطة منظوراتهم المتحيزة ودوافعهم الذاتية، أو بتعبير جيرتز: "إن ما نطلق عليه بيانات إنما هي في الواقع تأويلاتنا لتأويلات الآخرين" (Greenfield, 2000:570). والحقيقة من منظور أنصار ما بعد الحداثة المتشككين هي شكل من أشكال الإرهاب إذ تنضوي مقولات الحقيقة على تهديد وإغصاب واستفزاز، كما يفضي الوجود المطلق للحقيقة إلى إسكات أصوات تعارضها وطمسها. وتقدم دعاوى الحقيقة تبريراً للأقوياء، وتبث في نفوس الضعفاء شعوراً بالخطأ (الذنب) والنقص والقصور. أما أنصار ما بعد الحداثة الإيجابيون فيقبلون إمكانية وجود صور لحقيقة محلية خاصة وشخصية وسياقية ومرتبطة بمجتمع محلي صغير (Rosenau, 1992:8).

ولحركة ما بعد الحداثة أفكار محددة في مجال الابستمولوجيا، من أهمها الرؤية التركيبية Constructivism، وفكرة موت الواقع، والواقع الفائق أو المتخيل Hyper Reality، وتأكيد أنه ليس هناك عالم حقيقي (Clifford, 1986a:98-99)؛ بمعنى أن الواقع الذي نعرفه قد تلاشى مع ظهور التكنولوجيا الحديثة وشبكات الاتصال (Cuff, 1988:296-7) وتؤكد النظرية التركيبية فكرة تشييد الواقع وتركيبه، وأنه لا انفصال بين الحالات العقلية (الذات) والعالم الخارجي. كذلك ترفض ما بعد الحداثة النزعة الجوهرية Essentialism التي تؤكد أن الأشياء تمتلك جواهر وطبائع ثابتة بفضلها تتحدد هوية هذه الأشياء وكينونتها (Margolis, 1996:176). كذلك تطرح ما بعد الحداثة التناص أو البيئانية كبديل للسببية الحتمية وذلك من منطلق تأكيد العلاقات التبادلية المتداخلة المعقدة بشكل لا نهائي والحوار اللانهائي بين النصوص. كذلك يتبنى ما بعد الحداثيون منظور النسبية والشعرية الأنثروبولوجية كبديل للموضوعية، والنموذج الأخلاقي كبديل للنموذج الموضوعي. وتعني الشعرية الأنثروبولوجية ببساطة جعل الحياة الداخلية للشخص متاحة للآخرين وظاهرة بادية أمامهم (Tyler, 1986:126). وتنتقد ما بعد الحداثة الأنثروبولوجيا العلمية الوضعية في مقابل تبني رؤى التأويل و الأنثروبولوجيا الإنسانية، وتنتقد كذلك النزعة الإمبريقية (O'Meara, 1989:355). كما تتبنى الأساليب الانعكاسية والذاتية والسردية، وتعرف باتجاه دراسة المعنى الثقافي.

وترفض أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة جوهرية المقولات والمفاهيم المحورية في الأنثروبولوجيا الحديثة وبخاصة مفهوم الثقافة، الذي أظهر الآخرين متماسكين،

ويتميزون بالاحتواء الذاتي، ومختلفين عن الأنا الغربي، وبذلك رسخ هذا المفهوم وعمق نمطية الأنا/الآخر، وهو ما جعل الآخر دوماً موضوعاً للتفسير في حين ظلت الذات الغربية هي المفسرة أو القائمة بالتفسير⁽³⁾. ويأتي رفض جوهرية المقولات الأنثروبولوجية في إطار رفض القوالب التي تقيد الباحث وتحد من انطلاقه في آفاق الموضوع والتفسير الرحبة وآفاق المعنى اللامحدود. "ويغالي بعض النقاد في وصف مفهوم الثقافة بأنه مفهوم لا أخلاقي في جوهره العميق وينضوي على معنى السيطرة والهيمنة" (Lindholm, 1997: 743).

يتهم ما بعد الحداثيون الأنثروبولوجيين بالعدوان والتعدي على الآخر الثقافي، والنخبوية، والتجرد من النزعة الإنسانية، والاستقطاب، وقصور الإبداع. ويقررون أن

(3) يقع مفهوم الثقافة في مركز الصدام بين الحداثة وما بعد الحداثة، أو بين سندان الحداثة ومطرقة ما بعد الحداثة؛ وذلك لأن هذا المفهوم متجذر بعمق في الحداثة. ومن المعروف أنه قد ظهر وتبلور في إطار النظرية التطورية، ولكن علينا أن نعترف أنه نتاج للحداثة بنفس درجة كونه نتاجاً للأنثروبولوجيا. وقد قدمت الأنثروبولوجيا هذه المرجعية من خلال افتراض أن موضوع بحثها المحوري هو دراسة المجتمعات ما قبل الحديثة. وباتت المجتمعات الحديثة تعرّف وتحدد المجتمعات ما قبل الحديثة في علاقتها بذاتها. بمعنى آخر إن الحديث modern قد أعاد تصنيف العصور والحضارات القاصية في الزمان والمكان في علاقتها بذاته، حيث قام بتنظيمها وتعيينها على أساس أن الحديث هو قمة الحضارة والتقدم - على سبيل المثال، البدائي، العصور الوسطى، والدول المتخلفة ... إلخ. ومن خلال ذلك أعادت الحداثة تأكيد مركزيتها وأخضعت الآخرين لهذه المركزية. والحداثة ما كانت لتوجد دون هؤلاء الآخرين (الآخر الثقافي غير الغربي)، وذلك من منطلق أنها اعتمدت عليهم في تمثيلها لذاتها. بيد أن الحداثة أقامت علاقات تفاوت ولا تساوق مع هؤلاء الآخرين، وافترضت لذاتها مكانة أسمى وموقع سيطرة وهيمنة، وهنا يكمن الطابع الأيديولوجي للحداثة. وقد أدى مفهوم الثقافة دوراً محورياً وأساسياً في هذه العملية؛ أي في عملية خلق الحداثة للآخرين والاختلاف. وهكذا أصبحت الثقافة الوعاء الحاوي لجميع الأشياء التي أُعتبرت "غير حديثة"، وذلك بطريقتين: الأولى أن الثقافة تحوي الماضي؛ أي التقاليد والتراث، والثانية أن الثقافة تحوي ذلك النطاق الشاسع من الحاضر الذي يوجد خارج حدود الحضارة الغربية، والمعروف بالمجتمعات البدائية (التقليدية). ترى ليلي أبو لغد أن ثنائية الذات / الآخر هي اليد الخفية لفكرة الثقافات باعتبارها متفردة ومتماسكة ومنفصلة عن ثقافتنا (الثقافات الغربية). وارتأت أن مفهوم الثقافة مثل الأداة الأساسية لصناعة الآخر والإبقاء على نسق تراتبي هيراركي للاختلافات. إذا كان مفهوم الثقافة يُنتقد لتأكيد التماسك واللازمية وبأنه الأداة الأنثروبولوجية الأساسية لصنع الآخر والاختلاف، فإنه يتعين على الأنثروبولوجيين البحث عن استراتيجيات للكتابة ضد الثقافة. لقد تبدد وهم وجود ثقافات ثابتة ومترابطة تمثل وحدة عضوية متكاملة، كما لم تصمد الفكرة الرومانسية عن الوحدة الثقافية المتكاملة في مواجهة تشرذم العالم المعاصر. وقد تعلم الإثنوجرافيون، والأمر كذلك، أن الحدود الثقافية ليست أكيدة وأنها عرضة للتفاوض، وأن الثقافات في حالة قلب مستمر. لذا يعتقد كليفورد أن من المتعين التخلي عن افتراض أن الثقافة هي وحدة متكاملة صامدة يعتنق قيمها الجميع.

كتابات الأنثروبولوجيا الحديثة كشفت عن أخطاء ومغالطات وقصور واضح يتعذر علاجه، نظراً لارتكاز هذه الكتابات على ادعاء معرفي يستلهم مشروع التنوير البائد ويفترض خطأً قدرة الباحث الموضوعي الحيادي والتحليل الموضوعي على الكشف عن الأنماط العميقة الخبيثة للأفعال والمعتقدات البشرية. في حين تؤكد ما بعد الحداثة أن "هذا التحليل الموضوعي لا يمثل بحثاً عن الحقيقة التي يدعيها، بل لا يعدو، في أغواره البعيدة، أن يكون قناعاً يخفي نوايا امتلاك القوة وتكريسها، وتعظيم ذات المحلل الباحث الذي يقوم الآخر قيد التحليل ويسيطر عليه. فالأنثروبولوجيون هم مجموعة من المنافقين يخفون عن أنفسهم ومبجوثيهم الرغبة في السيطرة والهيمنة" (Lindholm, 1997:748).

يتمثل الطريق القويم - في رأي أنصار ما بعد الحداثة - في قبول الطبيعة النسبية للحقيقة واعتناقها باعتبارها نتاجاً تعدياً يتألف من إدراكات تصورية، وتأويلات يصوغها أفراد متساوون ومبدعون، دون أن يكون هناك مكان متميز لتحليلات الباحث الأنثروبولوجي، ويقول رابينو (Rabinow, 1986): "إن المؤلف ما بعد الحداثي يجب أن يكون ملتزماً بالنظرة التجريبية، ومذهب التغير المتواصل الذي وفقاً له تكون الأشياء (حتى الخاصة بموقف المؤلف الشخصي) غير ثابتة وغير مستقرة، وليس لها هوية محددة، ومن ثم لا يمكن اتخاذها موضوعات للتأمل والفحص...". وهنا يشير كليفورد Clifford إلى أنه في هذه الدوامة السريعة للحدود والروابط المتغيرة والأصوات المتعددة سوف تغزو تعددية التأويلات والأصوات المتنافرة Heteroglossia الإثنوجرافيا. يطرح ذلك "يوتوبيا التأليف التعددي"، إذ يصير الأنثروبولوجي مجرد صوت واحد بين كثرة من الأصوات المستقلة (Lindholm, 1997:748) وفي عالم ما بعد الحداثة تصير كل الأشياء متماثلة بصورة مساواتية ومختلفة أيضاً بالصورة نفسها؛ أي أن ثمة عوالم متعددة وطرقاً متعددة لصياغة هذه العوالم والموجودات ووصفها. ونظراً لأن هذه الموجودات متعددة بشكل يتعذر اجتنابه فإنه لا يمكن أن تكون هناك معايير أو قواعد عامة تستأهل احتراماً عاماً يملئ أموراً يجب التفكير فيها أو الكيفية التي بمقتضاها نسلك ونفعل (Lindholm, 1997:749).

واضح، إذن، أن ما بعد الحداثة هي التعبير الجديد عن النزعة الرومانسية التحريرية القوية، وفي هذا الصدد يقول شويدر Shweder: "يتحدد التيار العام للتفكير الرومانسي في الدفاع عن مساواة وتماثل أطر الفهم المتباينة في جوهرها...إن مفهوم

اللاعقلانية وفكرة العشوائية أو الاعتبارية تحريراً جزءاً من عقل الإنسان من القيود الصارمة العامة للمنطق والعلم، وهو ما يتيح التنوع والاختلاف؛ حيث يترك للإنسان حرية الاختيار بين الافتراضات المتناقضة أو المتضاربة، والصيغ المعرفية المختلفة والأفكار القيمة...". إن أنثروبولوجي ما بعد الحداثة يتوقون دوماً إلى تحرير الإنسان والعقل من الأوهام الوضعية الزائفة والمفاهيم القديمة مثل هيمنة تواريخ تصورية معينة، وخطاب يخدم الهيمنة واستغلال الآخر. وبذلك يمكن تحقيق نوع من "اليوتوبيا المعرفية"؛ أي أن عقلية جديدة في طور التبلور تتميز بأنها عقلية ما بعد سياسية ومتعالية أو مجاوزة اجتماعياً (أي تتجاوز الوجود المادي ونطاق الخبرة) (Roseberry and Polier, 1989:258). وبذلك تتيح ما بعد الحداثة لأنصارها فرصة الوصول إلى مستوى أرقى من المعرفة يحرم من الوصول إليه الأفراد العاديون الذين يركزون في أغلال إدراكاتهم وتصوراتهم الخاصة المرتبطة بالثقافة والمتأثرة بها، وهي تصورات ترتبط غالباً بمعايير المعقولة، وتزدرى الجنون والخيال. فالأنثروبولوجي المثالي هو فنان واقعي قادر على إنجاز مهمة تغيير الشكل عبر الثقافات، ويدرك أن كل الحقائق جزئية ومتحررة من ضغوط الواقع ومحدداته، ويجب فهمها بصورة عادية مألوقة. وما بعد الحداثة هي نوع من الكرنفال يلعب فيه خبراء الألعاب بالمجازات والدوال في عالم يتميز بالمرونة الشديدة اللانهائية، ومفتوح أمام قلة محظوظة تمتلك صلاحيات وأفكار لا تقبل الحكم عليها أو تقييمها (Lindholm, 1997:750).

إن الحرية ما بعد الحداثة تقوى، لا تنهدد، النفوس الجبانة المروضة التي تحتاج دوماً إلى علامات واضحة للطريق تقودها عندما تغامر في عالم نزوي متقلب وفوضوي تكون فيه كل الأشياء متماثلة تماماً ومختلفة تماماً. يؤمن ما بعد الحداثيون بنزعة المساواة الليبرالية، وبوجوب عدم إصدار أحكام على الآخرين، كما يرفضون الهيمنة والتمييز والهيراركية أو التراتبية؛ ذلك أن هذه الأحكام والفروض من شأنها أن تحدد وتقيد - أخلاقياً - قوى وسلطات الآخرين الذين يمتلكون أجنداث مشروعة وصحيحة تماماً مثل أجنداث الغرب. يأتي ذلك في إطار تمجيد ما بعد الحداثة للاختلاف والتعددية والتغاير، وفرضها لضوابط أخلاقية معينة تقوم على احترام الآخر والاختلاف والمساواة الليبرالية. ويستغرق أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة في عمل مهم وخطير يهدف إلى تحرير الوعي البشري، وهم بذلك يضطلعون بالدور الذي قام به الماركسيون في الماضي، وذلك من خلال التعويل على التأويل الذاتي الحدسي الموجه ضد الممارسات التي تقوم على الهيمنة

والسلطة الثقافية الغربية، ويهدفون كذلك إلى تقديم وتمثيل التعددية التحريرية المميزة للخبرة الإنسانية (Lindholm, 1997: 751).

تتطلب الجهود التي يبذلها أصحاب مدرسة التأويل ما بعد الحداثية أسلوباً أدبياً مقنعاً (وغامضاً ما داموا يؤمنون بالمرآوة والمعنى اللانهائي غير المحدد). ويؤكدون أن الإثنوجرافيا نشاط أدبي⁽⁴⁾ لا تربطه علاقة بالعام الاجتماعي الخارجي

- (4) تعرف أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة باتجاه "كتابة الثقافة" في إشارة إلى النقد المهم الذي أثير في الثمانينيات ووجه إلى الإثنوجرافيا باعتبارها المنهج المحوري في الأنثروبولوجيا الثقافية، وبوصفها عملية متميزة للكتابة وصياغة النصوص. ولما كانت ما بعد الحداثة تعبيراً عن "سقوط الاجتماعي في النص"، فإن هذا النقد قد ركز على البلاغة والتقاليد النصية التي من خلالها نجحت الأنثروبولوجيا في تأسيس سلطة المعرفة التي تقوم بإنتاجها. والواقع أن هذا النقد قد تطرق إلى ما هو أبعد من مناقشة الأنواع الأدبية للكتابة الأنثروبولوجية. فقد قوّض صورة الإثنوجرافي التقليدي الذي قدم نفسه على أنه مراقب علمي موثوق به، يعبر الحواجز الثقافية محتفظاً بحيادية بطولية، ويذكر الحقائق بلغة موضوعية. إلا أنه صار بالإمكان الآن تعرية هذه الصورة على أنها مجرد وهم. وبالاعتماد على مصادر النظرية النقدية صار بالإمكان الكشف عن الخدع البلاغية لعملية التأليف. لقد اهتم الإثنوجرافيون التقليديون - المتورطون في المشروعات الاستعمارية للقوى العظمى - بفرض نظام واحد على الفوضى الفعلية للأصوات ووجهات النظر والمواقف التي واجهتهم في الميدان، وذلك لتكوين وجهة نظر واحدة عن التاريخ. وبهذه الطريقة خدموا مصالح طبقة سياسية كانت ترغب في فرض نظام أجنبي على الرعايا المستعمرين في الخارج، أو الأقليات في الداخل. ويشير النقد ما بعد الحداثي الانعكاسي إلى أن الإثنوجرافيا هي نوع من "الكتابة"؛ بمعنى أنها ليست تقريراً علمياً موضوعياً ولكنها تركيب فكري إبداعي. ويؤكد جيمس كليفورد أن ما يعرف بـ "وجهة نظر المبحوث" هي في الحقيقة تأكيد لوجهة نظر الأنثروبولوجي الذي يكتب عن مشاركة المبحوث في الرواية الخيالية الإثنوجرافية. ومن خلال إسكات أصوات موضوعات التمثيل الأنثروبولوجي يفرض ويكرس النص الإثنوجرافي سلطة الأنثروبولوجي. وتعد كتابة الإثنوجرافيا دوماً تأكيداً للقوة والسلطة. كذلك نجح النقد ما بعد الحداثي في كشف النقاب عن التقاليد الأدبية المستخدمة في الكتابة الإثنوجرافية، تلك التي أضفت المشروعية على الأنثروبولوجيا وساعدت الأنثروبولوجيين على إقناع قرائهم بأن ما يقدمونه لهم يمثل وجهة نظر المبحوثين أبناء الثقافة. وقد أثار ذلك شكوكاً حول قدرة الأنثروبولوجيا على تقديم صورة صادقة عن الآخر أو حتى تمثيلة تمثيلاً صادقاً. كذلك أثّرت شكوك وهواجس حول الدراسات العقلية الكلاسيكية وتم تفكيكها. وبذلك سلب ما بعد الحداثيون الإثنوجرافيا الواقعية سلطتها واعتبروها نصاً يتم تركيبه وتأليفه على أيدي إثنوجرافي متمكن من أدوات البلاغية خاصة القدرة على الإقناع. وكان البديل الذي طرحه أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة، خاصة ماركوس وكوشمان، للنوع الأدبي المميز للإثنوجرافيا الواقعية، هو الوصف الإثنوجرافي التجريبي الجديد؛ الذي يترك العالم قيد الملاحظة مفتوح النهاية، غامضاً، ومتغيراً. ويتفق جيمس كليفورد مع تلك الرؤية بقوله: "إن جانباً كبيراً من معرفتنا بالثقافات الأخرى يجب أن ننظر إليه الآن باعتباره مشروطاً ونتاجاً إشكالياً للحوار الذاتي الداخلي، والترجمة والعرض". وينادي جيمس كليفورد - من هذا المنطلق - بنص إثنوجرافي حوارية بصورة جذرية، أو نص متعدد الأصوات polyphonic يقدم مجموعة متنوعة من الأصوات المتنافرة. وعلى الشاكلة ذاتها يخبرنا ستيفن تايلر "أن إثنوجرافيا ما بعد الحداثة =

(Davies,1999:214) ومن ثم تصير البراعة والمهارة البلاغية، بصرف النظر عن المادة الإثنوجرافية، مطلباً لازماً للبحث الفعال، وبذلك تقدر قيمة الإثنوجرافيا على أساس المدى الذي تتيحه للعب الحر لخيال المؤلف مع الاعتراف بالصفة الإنسانية الجوهرية للآخر. كل ذلك يمكن أن يتحقق عن طريق التوسل بعدة وسائل، من أهمها تسجيل السرد بطريقة انتقائية، أو الأساليب الروائية التعبيرية أو من خلال التحليل الاستبطاني لاستجابات الباحث الإثنوجرافي حيال موقف الدراسة الحقلية، أو من خلال استلهم النقد الأدبي المعاصر، أو الجمع بين هذه الوسائل والأساليب وأساليب أخرى بغرض إنتاج كتابات، على الرغم من غموضها، تنجح في تحدي قدرة التعميمات الأنثروبولوجية على وصف الحياة بصورة ملائمة.

ولكن ما غايات الجهود والرؤى ما بعد الحداثية ونتائجها؟ إن غاية ما بعد الحداثة تتحدد في صياغة نصوص أنثروبولوجية متعددة الأصوات والآراء، تحتفي بالقوالب الجديدة للفهم الإنساني التي لا يتم فيها تنحية شيء معين وإقصائه، الجيد والسيئ والقبيح لا شيء يتم رفضه، لا شيء يتم هجره أو التخلي عنه. وفي هذا النوع من الكتابة الإبداعية لا تتم موضوعة الناس أو تشيئتهم ونزع الصفة الإنسانية عنهم. ويتبدى هذا النوع من الكتابة كما لو أن شخصاً لعباً تربط خيالاته النزوية الأشياء القديمة معاً بطرق جديدة، ويختلط ويتشابك مع هويات متعددة. وكان من نتيجة ذلك ازدهار أنثروبولوجيا جديدة أكثر انفتاحاً وإنسانية (Lindholm,1997:751). وقد أدى نقد الإثنوجرافيا كأسلوب للبحث والكتابة إلى ظهور الأساليب الانعكاسية المتنوعة في

= ترفض الأيديولوجيا الواقعية التي تنهض على ثنائية الملاحظ / الملاحظ .. فلا وجود لملاحظ أو شيء يتم أو يمكن ملاحظته. وكبدل لهذه الأيديولوجيا يقرر تايلر الإنتاج الحوارى التبادلي للخطاب والنص الإثنوجرافي. إن أصبح الاهتمام بصناعة النصوص الإثنوجرافية - التقاليد البلاغية التي من خلالها يوصل الإثنوبولوجيون مآلتهم ويكرسون سلطتهم - اهتماماً مسيطراً في بعض قطاعات الأنثروبولوجيا في السنوات الأخيرة. وقد تضمن ذلك محاولة لضم أصوات أخرى للعرض الإثنوجرافي ومحاولة إعادة صياغة الكتابة الإثنوجرافية والمتأثرة بالممارسات التفكيرية، وذلك بهدف بعثرة السلطة الإثنوجرافية وتوزيعها، وتقديم إجابة عن سؤال طرحه بارت Barthes: "من يتحدث.. ومن يكتب..؟"

Rabinow, P. (1985). Discourse and power: on the limits of ethnographic texts, *Dialectical Anthropology*, Vol.10, P. [1].

Marcus, G., E., & Clifford, J.W. (1986). (Eds.), "Writing culture- politics and poetics of ethnography": Berkely: University of California Press.

الكتابة الإثنوجرافية (Marcus, 1998: 181). ومن أبرز تأثيرات التجليات والغايات ما بعد الحداثية في الممارسة الأنثروبولوجية المعاصرة:

1 - أن الترجمة الثقافية، وهي جوهر الأنثروبولوجيا والممارسة الأنثروبولوجية، لم تستوعب وتتمثل، في رأي أنصار ما بعد الحداثة، الاختلاف بصورة متكاملة دقيقة. ففي أية محاولة لتفسير وتقديم شروح لموضوع ثقافي معين يترسب فائض اختلاف Surplus of difference تخلقه، جزئياً، عملية الاتصال الإثنوجرافي في ذاتها. لذلك يجب أن يبقى أي إطار للعمل التفسيري إطاراً جزئياً غير محدد بأي معنى صارم. وهكذا تكرر فكرة الاختلاف الجذري أو فائض الاختلاف تحدياً أساسياً، وهي بذلك تعد حافزاً ودافعاً على إعادة صياغة لغة الكتابة الإثنوجرافية وقولها.

2 - يقرر أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة أنه ليس ثمة إمكانية لوجود معنى ثابت ونهائي ومتسلط مونولوجياً. وقد أدت هذه الفرضية إلى نشوء وفوران النقد الداخلي في الأنثروبولوجيا الذي يتناول أشكال التمثيل، وذلك من خلال تحدي ورفض السلطة التي تركز عليها أشكال التمثيل تلك. كذلك أسهمت هذه الفرضية في تقويض ممارسة نوع من التفسير الذي تُشتق منه المعاني.

3 - أسهمت الأفكار ما بعد الحداثية عن التغاير Heterotopia وفكرة التجاورات Juxtapositions والجمع والتأليف بين اللاقياسيات أو الأشياء اللاقياسية غير المتكافئة وغير المتناسبة - في إحياء ممارسة المقارنة الأنثروبولوجية وتجديدها، لكن بطرق مغايرة ومعدلة؛ حيث تفتقر التجاورات ما بعد الحداثية إلى الميتا - منطق الواضح الذي يميز الأساليب التقليدية للمقارنة الأنثروبولوجية (على سبيل المثال المقارنات المضبوطة التي كانت تعقد في إطار منطقة ثقافية أو إقليم معين)، ولكن بدلاً من ذلك تقدم التجاورات لوصف أو رصد يتميز بمواقع بحث واقعية مختلفة ومتربطة بصورة معقدة ومتشابكة (Marcus, 1998: 185-186). ويتميز موضوع الدراسة ما بعد الحداثي بأنه متحرك Mobile يقارب مواقع أو سياقات متعددة. ومن ثم تمتلك أية إثنوجرافيا، تتناول موضوعاً من هذا النوع، بعداً مقارناً يتكامل معها وينتج عن ذلك تجاورات بين أشياء لا قياسية غير متكافئة، أو بين ظواهر بدت بصورة تقليدية كما لو كانت عوالم منفصلة. وبذلك يسقط الكوني في المحلي، ويشكل الكوني جزءاً متكاملًا ومرتبطةً بالمواقف المحلية. أدى ذلك إلى نزع صفة

الإقليمية عن الثقافة في الكتابة الإثنوجرافية، كما أفرز هذا الاتجاه أوصافاً وأرصداً للثقافة التي تتألف من لاندسكييب ليس لدينا عنه مفهوم أو تصور نظري واضح حتى الآن (Marcus, 1998: 187).

(2) الإشكالية المنهجية:

تنطلق ما بعد الحداثة، في إحدى مقولاتها المحورية، من ازدراء المنهج ورفضه، بل يتحاشى أنصارها استخدام كلمة "منهج" كلية، ذلك على الرغم من أنهم يناقشون استراتيجيات الحقيقة والمعرفة بلغة ومصطلحات قريبة من الميثودولوجيا. ويرفضون النموذج الإرشادي للنزعة الموضوعية الوضعية (Lewellen, 2002: 43-44). والمنهجية هي الكيفية التي بمقتضاها يشرع الباحث في دراسة موضوع يستحوذ على اهتمامه، وترتبط بعملية البحث بيد أنها لا تخبرنا بما نتوقع اكتشافه (Rosenau, 1992: 116)، وربما تعيننا بعض الرؤى والأفكار حول منهجية العلم الاجتماعي الحديث كنقطة انطلاق مرجعية لفهم النقد ما بعد الحداثي والبدائل المطروحة للأساليب التقليدية والمغلقة التي تميز المنهجية الحديثة في الأنثروبولوجيا.

التزم العلم الاجتماعي الحديث بقواعد عامة للمنهج توجه عملية إجراء البحوث. ويؤكد الممارسون في العلم الاجتماعي الحديث أنه ليس هناك سوى منهج واحد، وهو المنهج العلمي، يتميز بتصحيح الذات وتقويمها وبكونه منهجاً عاماً يطبق في ميادين معرفية كثيرة ومتنوعة، ويحاول اختبار الفكر على بساط الواقع بأسلوب منظم. ويرتكز مشروع العلم الاجتماعي الحديث على الدليل المستقي من التجارب والخبرة الواقعية والملاحظة المباشرة وغير المباشرة. تلك هي قواعد لعبة العلم الإمبريقي التي أثبتت كفاءتها وفعاليتها، بيد أنها تعرضت لتحديات وانتقادات هائلة خلال حقبة الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، كان من نتائجها أن صار العلم الاجتماعي الحديث أكثر اعتدالاً؛ فبدلاً من محاولة إثبات النظريات أصبح في حاجة إلى صياغة فروض تسمح بإمكانية أو قابلية التكذيب والدحض، على حد تعبير كارل بوبر. إلا أن ذلك لم يغير النظام الأساسي للتصنيف واختبار الفروض في الواقع وتفسير النتائج وبناء النظريات، ولكن أدخلت تعديلات عليه في الوقت الذي لا تزال فيه المفاهيم يتم تعريفها بمصطلحات واقعية لا بمصطلحات اسمية، وترتبط هذه المفاهيم بمتغيرات تتيح للقيمة المدروسة أن تُنسب إلى المتغيرات التي تمثلها (Rosenau, 1992: 116) ولا يزال وضوح الإجراءات المنهجية في العلم

الاجتماعي الحديث يضيف المصادقية على النتائج ويحول دون العشوائية والعفوية، ويؤكد تراكم النتائج ووجود نظريات جيدة يمكن اختبارها. وينتج المنهج العلمي معرفة تتفوق على ما ينتجه التخمين والافتراض الظني والتأمل والمشاعر والحدس.

يعيد أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة النظر في مرتكزات المنهجية الحديثة ويبحثون عن أساليب ومنهجيات جديدة. ويرون أن المعرفة الأنثروبولوجية تفتقر إلى اليقين المطلق، الذي ينسب خطأً إلى المعرفة العلمية الطبيعية. وكان من نتائج هذه المقارنة هيمنة رؤية ما بعد حداثة مؤداها أن الإثنوجرافيا غير موثوق بها، وأن الإثنوجرافيين كتاب لروايات خيالية (Carrithers, 1990:236). وينادي أنصار ما بعد الحداثة بخطاب يخلو من العموميات ويناهض المعرفة العلمية التعميمية، والفصل التعسفي بين الذات والموضوع الذي يكرسه خطاب الأنثروبولوجيا العلمية (Harris, 1999:154). ويبنّي بعضهم رؤية فيرأبند عن "الفوضى المنهجية" وفكرة "أي شيء يفي بالغرض" Anything goes، ويرفضون الأرصاد والتفسيرات التي تصاغ حول الثقافة والمجتمع، وتنتج عن المنهج والبحث العقلاني والموضوعي، ويقرون عدم وجود تفسيرات متميزة للعالم، وبذلك يمزقون التقاليد المعرفية والمنهجية التقليدية، ويؤكدون أن الأنساق المتمركزة حول اللوجوس هي التي تكون وحدها مشغولة بالمنهج، إذ قدمت مناهج العلم الحديث وسائل لاختزال الظواهر إلى حقائق ومن ثم رؤية الظواهر بطريقة متسقة منظمة (Murphy, 1971:84). والمؤكد أن المنهجية الأنثروبولوجية الحديثة، خاصة طريقة البحث الكمي، أقضت إلى تشويه الثقافات وحصار القدرة الإبداعية للباحث وطمس أصوات المبحوثين ومنظوراتهم وتأويلاتهم وتجريدها من منطق السلطة الإثنوجرافية التي يخلعها الباحث على ذاته، حتى إن الإثنوجرافيات أو التقارير الإثنوجرافية قد صارت روايات واقعية يسطرها باحث متجرد من ذاتيته.

ولكن مع ذلك لا تختط ما بعد الحداثة مناهج أو أساليب منهجية جديدة يعتد بها، ولا تطرح سوى مجموعة لا محدودة من التأويلات الممكنة للعالم. وفي حين يرى البعض أن ما بعد الحداثة تطرح بديلاً منهجياً، يرى البعض الآخر أنها تسحب البساط من تحت أقدام كل المنهجيات. إن البحث الاجتماعي والأنثروبولوجي يرتكزان بعامة على قناعة محورية مؤداها أنه من الممكن فحص بناء الفعل

الاجتماعي ومعناه ودراستهما وتفسيرهما. ذلك على أساس أن هناك فاعلاً للفعل الاجتماعي، ويمنح هذا الفاعل مع فاعلين آخرين المعنى للفعل الاجتماعي. ومن خلال فهم النتائج المقصودة وغير المقصودة للفعل الاجتماعي يمكن تصوير وتفسير الأنماط المحددة وديناميات المجتمع. يرفض أنصار ما بعد الحداثة كل القناعات السابقة وذلك من خلال تفكيك فكرة الذات (الفاعل)، وتأكيد أنه ليس هناك معنى ثابت للذات، وأن الذات غير مؤكدة أو غير يقينية، وأن الواقع الاجتماعي والثقافي، الذي يعتقد الباحث أنه قادر على اكتشافه من خلال البحث، هو ببساطة واقع أنتجه الخطاب السسيولوجي والأنثروبولوجي الحديث. وكان من نتائج نقد المنهجية الحديثة أن ظهرت أساليب جديدة للبحث والتحليل الأنثروبولوجي، كالأساليب الانعكاسية الناقدة للذات - مثال ذلك بحوث السيرة الذاتية. وبذلك أصبحت مصادر البحث الموثوق بها هي المذكرات، واليوميات، والخطابات، والفيديو، وأشكال التمثيل المرئي، وهي وسائل تساعد الباحث على بناء معنى الحياة الشخصية والسياقات التي تُعاش فيها هذه الحياة (Bilton and Bonnet, 1995:129).

(3) المنهجية ما بعد الحداثة (البدائل المطروحة):

تتبنى ما بعد الحداثة اتجاهاً يقوم على وجود مناهج يمكن تطبيقها على نطاق واسع من الظواهر، وتركز على الهوامش، وتلقي الضوء على التفرد والخصوصية والمبهم الغامض والأشياء والظواهر التي لا يمكن أن تتكرر. وتتخلى المناهج ما بعد الحداثيّة عن محاولات خلق معرفة جديدة بالمعنى الحديث للكلمة، وإنما تتمسك بالتصوير النابض بالحياة Evocation. ويفترض العلم الاجتماعي ما بعد الحداثي مناهج متناقضة ظاهرياً ومتعددة تصوغ ذخائر هائلة من التساؤلات التي يشجع كل منها على وجود مجموعة هائلة لا نهائية ولا محدودة من الإجابات، وذلك كبديل عن المناهج الحديثة المغلقة التي تستقر على حلول وإجابات محددة. وكبديل عن المنهج العلمي يضع ما بعد الحداثيون نصب أعينهم المشاعر والخبرة الذاتية والعاطفية والانفعال والحدس والحكم الذاتي والخيال وأشكال الإبداع المتنوعة (Rosenau, 1992:117). وتشتمل أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة على عدة أساليب واستراتيجيات منهجية، نعرض لها فيما يلي :

التفكيك:

يرتبط مصطلح التفكيك Deconstruction باسم جاك دريدا، ويرفض بعض أنصار ما بعد الحداثة اعتبار التفكيك منهجاً، في حين يصر البعض الآخر على أن التفكيك استراتيجية ضد المنهج (Rosenau, 1992: 221). ويقول جوناثان كللر Culler: "إنه يمكن النظر إلى التفكيك من عدة زوايا، إما أنه موقف فلسفي أو استراتيجية سياسية أو عقلية، وإما أسلوب أو طريقة للقراءة أو منهج للقراءة والتفسير". إن هدف التفكيك هو هدم وتقويض وتفكيك كل العقائد الجامدة والمقولات التقليدية والمسلّمات والأفكار، وذلك في ميادين المعرفة قاطبة (Dernasconi, 1996: 123).

وتتألف المناهج التي اختطها جاك دريدا من مجموعة من الاستراتيجيات لتفكيك المعاني والتفسيرات المقبولة الراسخة. ويمثل التفكيك تهديداً خاصة لمشروع التنوير الذي يستند إلى العقل، لذلك لا يركز على الاتساق المنطقي الذي يعتبر عادة جوهر العقل. وقد ركز التفكيك على تدمير الميتافيزيقا الأوروبية وثنائيات الفلسفة الغربية. وتتم عملية التفكيك في الاتجاه المعاكس للمحاولات التقليدية لتحديد نص له بناء متماسك وصياغته، إذ يحاول الاتجاه التقليدي تحديد الاتساق الداخلي للنص وإضاءته كلما كان ذلك ممكناً. أما التفكيك "فيزرع التناقضات داخل النص، ويبرز انقسام النصوص على ذاتها، ويرفض الهيراركية أو التراتبية ووجود معنى نهائي للنص من منطلق تأكيد تعددية المعاني" (Cuff et al., 1988: 290-291).

يستخدم أنصار ما بعد الحداثة التفكيك، على نطاق واسع، في فحص النصوص واستنتاجها. ونظراً لأن كل شيء "نص" من وجهة نظرهم - الثقافة نص والظواهر نصوص - فإن استخداماتهم للتفكيك تكون لا محدودة. ويتميز التفكيك بأنه ذاتي وضد - موضوعي ويعوق المعرفة العامة وصياغة التعميمات والنظريات الشاملة ويعتبرها أمراً مستحيلاً بعيد المنال، ويرفض تشييد هيراركيات للنظريات الجيدة والسيئة (Rosenau, 1992: 118). وما دامت الثقافة نصاً فإن أنثروبولوجيي ما بعد الحداثة يحاولون تفكيك هذا النص بقصد الكشف عن معناه الضمني الخبيء الكامن، وذلك من خلال الكشف عن قلبه الخفي وافتراضاته الداخلية العميقة (Barnard, 2000: 197). ويشمل التفكيك إضاءة النص وتبديد غموضه وتفكيكه للكشف عن هيراركياته العشوائية وافتراضاته الداخلية. وينصب التفكيك ويتسلط على تفسير نواقص النص وعيوبه وبناءاته الميتافيزيقية الكامنة.

وتسعى القراءة التفكيكية للنص إلى الكشف عن الغموض والتمركز حول اللوجوس. والتفكيك هو تمشيط جذري دقيق لقوى الدلالة المتحاربة داخل النص، فبدلاً من فحص البراهين والحجج وتصنيفها يحاول التفكيكيون فحص الهوامش، والتغلغل في صلب "النص"، وفحص ما يكتبه ومظاهر عدم الاتساق وعدم التناغم التي يزرعها النص (الثقافة) (Rosenau, 1992: 120). ويهدف التفكيك إلى ما هو أكثر من إسقاط التقابلات؛ لأن ذلك قد يفسح المجال أمام ظهور هيراركيات جديدة. كما لا يهدف إلى مجرد الكشف عن الخطأ؛ لأن ذلك يفترض، في جوهره، وجود حقيقة يرفضها ما بعد الحداثيون. كذلك يرفض أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة "إعادة تركيب" النص أو بناء رؤية بديلة أو إعادة تأسيس صورة تنضوي على هيمنة من نوع ما. يكشف التفكيك أيضاً عن التناقضات ولكن لا يحلها.

واضح بناءً على ذلك أن عملية التفكيك عملية معقدة، ويقرر ما بعد الحداثيون في نهاية المطاف "أن النص يفكك ذاته". ويبدو التفكيك لكثير من العلماء الاجتماعيين عملية مجردة غامضة بيد أنه في الحقيقة عملية ليست بالغة التعقيد على هذا النحو، ويتضح ذلك من حصر المبادئ والاستراتيجيات التي يتضمنها المنهج التفكيكي، وهي:

- 1 - إيجاد بديل للتعميم في النص، والدفع به إلى أقصى مدى حتى ليبدو التعميم عبثاً لا طائل منه، بما يعني ضرورة التوسل بأساليب الوصف المكثف والسرد والتصوير النابض بالحياة.
- 2 - تجنب المقولات (الروايات) المطلقة في تفكيك النص، وغرس معنى الإثارة الفكرية، في المقابل، وذلك من خلال جعل المقولات والعبارات مثيرة ومبهرة.
- 3 - إنكار مشروعية كل ثنائيات التقابل.
- 4 - تأكيد أنه ما من شيء يمكن قبوله أو رفضه. ومن الصعب رفض أية حجة تفكيكية لأنها تعبر عن وجهة نظر معينة. يشير ذلك إلى فرضيتي تعددية الآراء وتنافر الأصوات، والمعارضة.
- 5 - الكتابة بطريقة تسمح بوجود حشد هائل من التأويلات والتفسيرات الممكنة؛ ذلك لأن التفكيك يؤكد تعددية المعنى ولا نهائية التفسير والدلالة.
- 6 - صياغة نص لا نهائي منقوص أو غير مكتمل نص لا يمكن للقارئ أن يفرغ منه أبداً.

7 - يوظف التفكير مصطلحات جديدة وغير تقليدية تكسر ألفة المواقف المألوفة.

8 - إصرار الموقف التفكيرى على أن يكون غامضاً ملتبساً دوماً؛ لأن الصياغات البسيطة المألوفة تقوض أي شعور بتفرد وتميز الموقف التفكيرى (Rosenau, 1992: 121).

تلائم استراتيجية التفكير الدراسة الإثنوجرافية لتشكيل الهوية، خاصة أن عملية تشكيل الهوية تكشف عن بعض الخصائص الأساسية للعملية النقدية التفكيرية في الممارسة أو الواقع وذلك من الناحية الإمبريقية. فالهوية تنبني وتتراكم وتنطلق عبر شبكة من المواقف، وتعد بذلك ظاهرة منتشرة لها حياتها الخاصة وذلك بعيداً عن المعنى الحرفي البسيط لكلمة الهوية باعتبارها شيئاً متأصلاً في فاعلين معينين من البشر في زمان ومكان معينين. وتختلف معاني الهوية من ثقافة لأخرى أو أن معانيها تختلف دائماً في أي نص/مكان مقارنة بمكان آخر وذلك من خلال مجموعة متنوعة من الروابط والمرجعيات التي يعمل من خلالها أي فاعل إنساني بطريقة خلاقة، وفي المنظور ما بعد الحداثي تمثل العملية التفكيرية الظرف الإنساني (Marcus, 1998: 73-74).

واقع الأمر أن الرؤية التفكيرية صارت بالغة الأثر في العلوم الاجتماعية كالأنثروبولوجيا، خاصة فيما يتعلق بتحليل الأعمال والممارسات الثقافية وتفكيك النظرية الأنثروبولوجية، والاستفادة من نموذج جاك دريدا في تحليل النصوص الإثنوجرافية والمونوجرافات الكلاسيكية. وتكشف رؤية دريدا المتعلقة بقراءة النص وكتابته عن عجز النموذج الوضعي للباحث الذي يعكس العالم الخارجي بعيداً عن الداخل، وتشتمل هذه الرؤية على طرق جديدة لكتابة العلم وقراءته. وتتوافق استراتيجية التفكير النقدية مع فكر ما بعد الحداثة والإثنوجرافيا التجريبية، وهو ما يتضح في رفض التفكير للتعميمات والثنائيات وتأكيد انفتاح النص ولانهائية الدلالة والتفسير (Marcus, 1998: 73 - 74).

وهنا يثور في أذهاننا سؤال: لماذا لا تطبق استراتيجية التفكير في تحليل وتفكيك وفحص إثنوجرافيات ومونوجرافات مصرية وعربية، وهو اتجاه يمكن اعتباره منطلقاً لبناء النظرية الأنثروبولوجية والأنثروبولوجيا المصرية في المستقبل؟.

التأويل الحديسي:

يعرف التفسير في الأنثروبولوجيا الحديثة بالتفسير السببي الذي يركز على استجلاء مسببات الظواهر السوسيوثقافية والكشف عنها. أما بعد الحداثة فتركز على التأويل البينصي Intertextual، وذلك من منطلق أن الأشياء في عالم ما بعد الحداثة تتربط بطريقة تفاعلية بما يعني ضمناً رفض السببية. والتأويل البينصي ينكر نظرية الحقيقة. ويستقيم رفض نظرية التمثيل الحديثة مع رؤية التأويل ما بعد الحداثي التي تؤكد وجود عدد لا نهائي من التأويلات المتساوية؛ وذلك لأن التمثيل يعد مستحيلاً في الواقع.

ويختلف التأويل ما بعد الحداثي عن التفسير في العلم الاجتماعي الحديث؛ ذلك أن التفسير التقليدي يهدف إلى الوصول إلى المسببات التي بتأثيرها تقع الحوادث. وهنا يفترض أن تكون بعض التفسيرات أصدق وأفضل من غيرها، وتتاح الفرصة لوجود أي عدد من التفسيرات غير المتصارعة وغير المتضاربة، إذ إنه عندما تتصارع أو تتضارب تكون جميعاً خاطئة ويكون هناك - على الأكثر - تفسير واحد صحيح (Rosenau, 1992: 118). أما التأويل ما بعد الحداثي فيعبر عن الفهم الحديسي الذاتي، وبصورة أكثر دقة، فهم الثقافات كما لو كانت مثل اللغة أو يمكن ترجمتها. وتنتمي هذه الرؤية في الأساس إلى الاتجاه التأويلي في الأنثروبولوجيا الذي يؤكد تأويل الثقافات ودراسة المعنى الثقافي وليس بحث الأبنية الشكلية (Barnard, 2000: 202). ويتميز التأويل ما بعد الحداثي بأنه استبطاني، وضد موضوعي، نوع من الفهم الفردي، ويحاول تبديد الذات الحديثة وتشقيتها، وأي تمييز بين الأنا والآخر، بين الحقيقة والقيمة، وقد أدت هذه الرؤية إلى ظهور "السرد" والتمركز حول الآخر والإنصات إليه ومحاورته (Rosenau, 1992: 119). ويختلف التأويل ما بعد الحداثي عن التفسير التأويلي الذي يتميز بأنه أكثر ذاتية وأقل طموحاً مقارنة بالتفسير في العلم الاجتماعي الحديث. والتفسير التأويلي على خلاف التأويل ما بعد الحداثي، يسعى إلى سبر أغوار "الخبيا الصامتة" وذلك بهدف الكشف عن معنى عميق خبيء ومقنع وينتظر الكشف عنه. أضف إلى ذلك أن التفسير التأويلي يقبل الحقيقة والعمومية والخطاب المشترك.

يؤمن أصحاب رؤية التأويل ما بعد الحداثية بعدم وجود معنى أو تأويل محدد لأي نص (ثقافة)، وبأنه لا وجود لتفسير أو تأويل أفضل من غيره في عالم الحداثة، عالم التأويلات المتعددة والوقائع المتنوعة وغياب اليقين. وربما يبالغ بعض أنصار

الحدثة فيرون أن جميع التفسيرات خاطئة، وأن أي فهم هو إساءة فهم، وأن أي قراءة لثقافة باعتبارها نصاً هي إساءة قراءة وتشويه لواقع الموجودات الثقافية والاجتماعية (Rosenau, 1992: 119).

الإثنوجرافيا متعددة المواقع:

مع بروز موضوعات ودراسات العولمة الأنثروبولوجية ظهرت الحاجة إلى استراتيجية منهجية جديدة تصلح لدراسات الحدود، وتشكيل الهوية، والشتات، والفضاء الإلكتروني، والجماعات والثقافات الإلكترونية، والشركات متعددة الجنسيات، والعرقيات وغيرها، هذه الاستراتيجية هي "الإثنوجرافيا متعددة المواقع" Multi-sited (Lewellen, 2002: 57-58). إن الإثنوجرافيا جزء لا يتجزأ من نسق عالمي تاريخي ومعاصر يعرف بالاقتصاد السياسي الرأسمالي (Marcus, 1998: 79). لذلك تفضي التحولات التي تطرأ على هذا النسق إلى إدخال تعديلات على منهجية الإثنوجرافيا. واليوم يتواشج البحث الإثنوجرافي مع موجة رأس المال الفكري المعروف بما بعد الحدثة، فيتحول من التركيز على موقع واحد ومواقف محلية إلى فحص دوران المعاني والأشياء والهويات الثقافية في زمان - مكان كوني متسع. وتعد الإثنوجرافيا متعددة المواقع إثنوجرافيا متحركة Mobile تتخذ مسارات غير متوقعة في اقتفاء وتتبع صيغة ثقافية معينة عبر مواقع متعددة للنشاط. وقد جاءت هذه الاستراتيجية كرد فعل للتغيرات التي تجتاح سياقات الإنتاج الثقافي المتحولة.

وبالنسبة للإثنوجرافيين المهتمين ببحث التغيرات المحلية المعاصرة على صعيد الثقافة والمجتمع، لم يعد أسلوب البحث أحادي الموقع كافياً بعد أن انهارت الحدود الفاصلة بين المحلي والكوني في عالمنا المعاصر. وتتيح الإثنوجرافيا متعددة المواقع دراسة موضوعات جديدة وارتداد آفاق بحثية غير تقليدية، وذلك في إطار مفهومات و رؤى ما بعد الحدثة التي تلائم الأوضاع والظروف الاجتماعية والثقافية المعاصرة. ويعد مجال دراسات الإعلام من المجالات المهمة التي تستخدم فيها الإثنوجرافيا متعددة المواقع، وينسحب ذلك على مجال الدراسات الثقافية للعلم والتكنولوجيا، ودراسات الهجرة واللاجئين والهويات القومية، والتنمية المعاصرة، وقضايا الإنجاب، والتلوث، والتكنولوجيا الحيوية والمشاريع الضخمة مثل مشروع الجينوم البشري.

وترتكز الإثنوجرافيا متعددة المواقع على تتبع واقتفاء ظواهر ثقافية داخل مواقع بحثية مختلفة. وتتحدد أهم أساليب الإثنوجرافيا متعددة المواقع فيما يلي:

1 - مراقبة البشر وتتبعهم: ويقوم هذا الأسلوب على تتبع تحركات جماعة معينة مثل دراسة الهجرة واللاجئين وانتشار المركبات الثقافية، والمثال على ذلك دراسة روس Rouse المعنونة (*Mexican Migration and the Social Space of Postmodernity, 1991*). وقد عمد روس في هذه الدراسة إلى تتبع مبعوثيه المكسيكيين عبر الحدود والمواقع التي يرحلون و ينتقلون بينها.

2 - مراقبة الأشياء وتتبعها: يتضمن هذا الأسلوب بناء مكان متعدد المواقع للبحث، وتتبع دوران وحركة موضوع مادي للدراسة عبر سياقات ثقافية مختلفة، مثال ذلك دراسة السلع والهدايا والنقود. والمثال الواضح هنا دراسة أبادوراي The Social Life of Things التي أشار فيها إلى تتبع المكانة المتغيرة للأشياء - سلع أو هدايا أو موارد- في دورانها وانتشارها عبر سياقات مختلفة.

3 - تتبع المجاز Metaphor: عندما يوجد الشيء قيد التتبع والدراسة في عالم الخطاب وأساليب التفكير فإن دورة الرموز والعلامات والمجازات من شأنها أن توجه وتصوغ تصميماً للإثنوجرافيا متعدد المواقع. ويتضمن هذا الأسلوب ممارسة تتبع الروابط والعلاقات الاجتماعية وأسس الارتباطات التي تكون حية ماثلة في استخدام اللغة والمطبوعات والوسائل والمواد البصرية المرئية.

4 - تتبع الحبكة الروائية، والقصة، وتاريخ الحياة أو السيرة الذاتية: إذ يمكن للحكايات والسرديات التي تروى في إطار الدراسة الحقلية أن تكون موجهة لبحث إثنوجرافي متعدد المواقع. كذلك يمكن أن تكشف تواريخ الحياة عن السياقات الاجتماعية والمواقع المتعددة وتتجاوزها.

5 - تتبع الصراع: ويشير هذا الأسلوب إلى تتبع الصراع عبر سياقات ثقافية واجتماعية متعددة، وهو أسلوب أساسي في الإثنوجرافيا متعددة المواقع (Marcus, 1998: 90 - 94).

إن استراتيجية الإثنوجرافيا متعددة المواقع تلائم عصر ما بعد الحداثة الذي يتسم بالاتصال الثقافي المكثف بواسطة شبكة من الاتصالات وثقافة كونية تفت في عضد المحلية والسياقات والثقافات الوطنية. وبذلك تسعى هذه الاستراتيجية إلى

دراسة نسق كوني بوصفه كلاً متكاملًا، وهو ما يثير إشكاليات لا تحصى، وترتكز على فكرة التجاورات ما بعد الحداثية بين المحلي والكوني.

إثنوجرافيا التصوير التجريبية:

تمثل إثنوجرافيا التصوير Evocation أحد البدائل ما بعد الحداثية لنظرية التمثيل الأنثروبولوجي الحديث - تمثيل وحديثه نيابة عن ثقافة أو مجتمع أو جماعة معينة. إذ ينادي أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة بنهاية نظام التمثيل باعتباره ممارسة محورية في أجندة الحداثة الغربية. وقد ترافق ذلك مع انحسار جحافل الحركة الاستعمارية، وظهور دعاوى "نهاية الحداثة"، ونقد الآخريّة التي تجسد ثنائية الأنا/الآخر وتؤكد دونية الآخر وضرورة تمثيله والتحدث نيابة عنه (Said, 1989: 761). وقد تمخضت أزمة التمثيل عن عدم الثقة في الأدوات والأساليب الملائمة والكفاء لوصف الواقع الاجتماعي والتي ظلت لفترة طويلة مرتكزات ينهض عليها العلم الاجتماعي التعميمي. كذلك كانت هذه الأزمة تعبيراً عن إخفاقات النماذج الإرشادية والنظرية الموجهة عن الثبات في النظام الاجتماعي، والتي سادت خلال حقبة ما بعد الحرب العالمية وشهدت، منذ الستينيات، تحولاً جذرياً عميقاً (Marcus and Fischer, 1986: 8).

ارتأى أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة، أن التمثيل ينضوي على مغالطة منطقية؛ لأن الأمور المهمة يصعب تمثيلها: كالأفكار والرموز والكون والمطلق والإله والعدالة، ويبتعد التمثيل عن الأمور التي يقدرها أنصار ما بعد الحداثة: الجوانب الرومانسية والعواطف والمشاعر (Rosenau, 1992: 94). ويشيرون إلى أن التمثيل يتسم بكونه استبدادياً وتسليطياً يجسد سيادة منظور ورؤية واحدة مع قمع باقي الرؤى والمنظورات؛ ذلك أن التمثيل يفترض سلطة الإثنوجرافي في البحث والكتابة باعتباره الشاهد الإثنوجرافي على الواقع. يرفض مابعد الحداثيون هذه السلطة، ويطالبون بتوزيعها وبعثرتها بحيث يكون للمبحوث سلطة البحث والكتابة أيضاً، وأن يبرر صوته في النص الإثنوجرافي النهائي. يعني ذلك التخلي عن السلطة المونولوجية (الأحادية) والتمسك بسلطة الحوار، وذلك من منطلق رفض منطق الإنابة التمثيلية. والتمثيل ينضوي على مخاطرة كبيرة، وهو نظام عقيم وسيئ، أو على حد تعبير جاك دريدا "إخفاق حداثي" مؤكداً اللعب الحر للدوال حيث لا وجود لمعانٍ أو مدلولات محددة. وإن التمثيل يفضي إلى تشويه الواقع والموجودات

الاجتماعية والثقافية وكسر ألفتها، والتمثيل يحول التعقيد إلى شيء ملموس واقعي ويصوغه ويختزله. باختصار يقرر ما بعد الحداثيون أن التمثيل مخادع واحتيالي وفاسد ومصطنع وميكانيكي ومضلل ومنقوص (Doody,1991:20).

وترتكز نظرية التمثيل على مجموعة من الافتراضات الزائفة على اعتبار أن كل تمثيل يتضمن إشارة أو إحالة إلى تمثيلات أخرى؛ بمعنى أنه لا يوجد تمثيل موثوق به وحقيقي. ويفترض التمثيل صحة ومشروعية نسخة معينة لا تعدو أن تكون صورة زائفة (نسخة من نسخة ولا وجود لأصل حقيقي)، وبذلك يصير الزائف شيئاً حقيقياً كالواقع تماماً. والأنثروبولوجيا ما هي إلا تمثيل لتمثيلات الآخرين (المبحوثين)، وهي بذلك تمثيل زائف غير حقيقي (Boulin and Stromberg,1997:124). وعلى النقيض من نظرية التمثيل وفرضياتها، تعتبر الحقيقة متعددة وبلاغية. يتطلب الموقف التقليدي في الأنثروبولوجيا وجود حقيقة لتمثيلها واكتشافها إثنوجرافياً من خلال أساليب الملاحظة بالمشاركة. والفكرة العامة عن المعرفة الثقافية، وغيرها من المعارف، هي أنها ينبغي أن تعكس وتصف وتصور وتتطابق مع عالم واقعي، وتلك فكرة يثير حولها أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة شكوكاً (Rabinow,1986:257) من منطلق رفضهم للرؤية الدوركايمية التي مؤداها أن الظواهر الاجتماعية أشياء خارجية تمارس قهراً على الأفراد. لذلك كان يتم تشييء الواقع وتحويله إلى موضوع وتمثيله بواسطة مناهج وأساليب موضوعية. يؤكد التمثيل، إذن، أن الأشياء توجد مستقلة في عالم واقعي حقيقي ويتم تمثيل العالم الخارجي بوصفه معرفة وعاماً وحقيقياً. ينبذ ما بعد الحداثيون هذه الرؤى والأفكار جانباً ويؤكدون عدم إمكانية تحقيق ذلك، وأن الواقع لم يعد قائماً بالخارج هناك بل لقد انهار (موت الواقع) وتحول اليوم إلى مجرد صورة، وهم أو شيء زائف. ويرفضون فكرة الموضوعية ويعتبرونها وهماً يفضي إلى قصور وفقر رصد خبرة الإثنوجرافي. كذلك يحفز التمثيل صياغة تعميمات، تهدد الخصوصية والتنوع والاختلاف والتباين، ويرتكز على المنظور الكلي الشامل الذي يهدر خصوصية الأجزاء وتقدها، وهو منظور يرفضه أنصار ما بعد الحداثة ويتبنون منظوراً تجزيئياً كبديل.

الواضح أن أزمة التمثيل قد أثارت شكوكاً حول إمكانية وصف الثقافات وتمثيلها، وصياغة نظريات وتعميمات متجردة عنها وعن واقعها (Tyler,1986:129-130) ودفعت إلى التوسل بأدوات نصية وتمثيلية جديدة

للتصوير النابض بالحياة (Carrier,1992:195). وبذلك تبتعد إثنوجرافيا ما بعد الحداثة عن الخطابات المتعالية التي تفرض هيمنة أو منظوراً بعينه، واستبدلت التصوير بالتمثيل. يؤثر أنصار ما بعد الحداثة التصوير؛ لأنه يحرر الباحث من الموضوعات، والحقائق، والأوصاف، والتعميمات، والتجارب، والحقيقة. وبذلك تحولت النظرة إلى التعميم إلى اعتباره عملية إبداعية وليس مقولة أو فئة أساسية تفرض هيمنة من نوع معين (Hastrup,1992:339-340). ويتمهى التصوير باعتباره بديلاً للتمثيل مع الرفض ما بعد الحداثي لنموذج العلم الطبيعي، الذي يقوم على صياغة فروض ونظريات وتعميمات ويبحث عن قوانين، ويستخدم أساليب موضوعية علمية في البحث. حقيقة الأمر أن هذا البديل يعني التخلي كلية عن السلطة الإثنوجرافية (Marcus and Fischer,1986:8).

يقرر ستيفن تايلر Tyler أن اعتماد العلم الأنثروبولوجي على التمثيل أقضى إلى إفلاسه. ويرى أن إثنوجرافيا التصوير أو التصوير يختلف عن العرض والتمثيل في أنه لا يمثل أي موضوعات، ويقع خارج نطاق البحث عن الحقيقة، ويرفض حكم الأداء ويتجاوز الفصل بين الحسي والمدرک، وبين الشكل والمضمون، وبين اللغة والعالم (Manganaro,1990:10-11). "إن الدافع على التوافق مع قوانين البلاغة العلمية جعل من الواقعية المميزة للتاريخ الطبيعي النموذج المسيطر في النثر الإثنوجرافي، بيد أنها كانت واقعية موهومة تدعم العبثية التي تنطوي عليها محاولات وصف كيانات لا وجود لها مثل الثقافة والمجتمع، وتدعم النزعة السلوكية إلى وصف الأنماط المتكررة (المتواترة) للفعل بمعزل عن الخطاب الذي يستخدمه الفاعلون في تشكيل أفعالهم" (Tyler,1986:130).

ترفض إثنوجرافيا التصوير ما بعد الحداثية أي سلطة للمؤلف الإثنوجرافي يفرض من خلالها تفسيراته ورؤاه على آخرين. كما أن التصوير يحرر الباحث الإثنوجرافي من تقليد ومحاكاة الأسلوب غير الملائم للبلاغة العلمية؛ وذلك لأن رؤاها ومفاهيمها لا تعدو أن تكون رؤى ومفاهيم فارغة ليس لها ما يوازئها سواء في الخبرة الميدانية أو في كتابة الإثنوجرافيا. وحرى بالذكر أن إثنوجرافيا ما بعد الحداثة إثنوجرافيا تتسم بالانتقائية، واللعب الحر بالأفكار، والانعكاسية، والتناقض، والمراوغة، والمعارضة، وتسعى إلى تصوير وتمثيل التنوع في الحياة الاجتماعية وترفض التعميمات والنظريات الكلية الشاملة. وتفضل هذه الإثنوجرافيا التجريبية مستوى الميكرو والفعل ووجهة نظر الفاعل، وتمعن النظر في خبرة الدراسة الحقلية

وإشكالياتها. وإن اللحظات التجريبية تتميز بعدم الاستقرار والطابع الوقتي وتقع في موقع (بين- بين)، وتنتج إثنوجرافيات للخبرة تركز على المعنى الثقافي ومعنى الانتماء لجماعة معينة وتتسم بالانفتاح (Marcus and Fischer, 1986:8).

الإثنوجرافيا الحوارية (متعددة الأصوات):

بعد نقد الإثنوجرافيا الواقعية (نموذجي الخبرة والتفسير)، والدعوة إلى بعثرة هياكل السلطة الإثنوجرافية التقليدية (Clifford, 1988:22)، وبعد أن تأكد أن الإثنوجرافيا تتألف من خطابات ومكونات مترابطة حوارياً، ظهرت الإثنوجرافيا الحوارية متعددة الأصوات، التي تحاول عرض الأصوات المتعددة والمتنافرة داخل سياق النص الإثنوجرافي وتشجع وجود قراءة من منظورات مختلفة.

ونتيجة للانتقادات المبكرة التي وجهها ليرس M.Leiris وماكيت Maquet J. وطلال أسد T.Asad وآخرون، وضعت الخصيصة غير التبادلية للتفسير الإثنوجرافي موضع نقاش وجدل. فلم يعد ينظر إلى الخبرة أو النشاط التفسيري للباحث العلمي باعتباره بريئاً أو غير مشوب. وأصبح من الضروري فهم الإثنوجرافيا ليس بوصفها خبرة وتفسيراً لواقع ثقافي آخر محدد المعالم ولكن باعتبارها خطاباً أو تأويلاً أو حواراً. وبذلك تنسحب النماذج الإرشادية للخبرة والتفسير أمام الاجتياح الكاسح للنماذج الإرشادية الخطابية للحوار وتعددية الأصوات (Clifford, 1988:41). ويقرر جاك دريدا أن الأنثروبولوجيا توجد أو تحدث داخل مجال الخطاب (Dwyer, 1979:220)، وقد ظهر وعي انعكاسي بأن الآخر شريك في إنتاج المعرفة لذلك يجب أن تصير العلاقة به حوارية وليست مونولوجية أحادية الاتجاه؛ ذلك أنه في كل الإثنوجرافيات توجد كثرة من الأصوات في النص، بعضها أصوات الإخباريين، وأصوات أخرى للإثنوجرافي الذي يمكن أن يتحدث باعتباره محاوراً أو فاعلاً اجتماعياً أو محلاً (Aull Davis, 1999:221).

ويعبر جيمس كليفورد عن موقف أنصار ما بعد الحداثة بقوله: "يؤشر ميخائيل باختين، الذي انشغل بالكيلات غير المتجانسة، على أنه لا وجود لعوالم ثقافية متكاملة... وأن افتراض وجود مثل هذه الوحدات هو في جوهره بناء أو تكريس للقوة الأحادية الاحتكارية (أحادية الصوت)... والثقافة، على مستوى الواقع الملموس، هي حوار خلاق مفتوح النهاية بين الثقافات الفرعية، وبين الداخل والخارج، وبين الجماعات وبعضها البعض" (Sangren, 1988:411). وبذلك اختفت

في أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة النظرة إلى الثقافة باعتبارها كلاً متكاملًا، وبرزت النظرة إلى الأرصاد والأوصاف الثقافية باعتبارها جزئية (Clifford, 1986b:18). الثقافة، وفق هذا المنظور، كيان متحول ومتغير باستمرار يتم تفاوضها واختراعها بصورة مستمرة (Rubel and Rosman, 1994:338)، وهي ليست موضوعات علمية أو موضوعات للوصف أو حشدًا من الرموز والمعاني التي يمكن تأويلها بدقة. ولكن الثقافة، ومنظوراتنا إليها، يتم إنتاجها تاريخيًا، وهي خلافية متعارضة، وزائلة أو تتميز بالطابع الوقتي، كما أنها ظاهرة منبثقة (غير طبيعية) emergent أو طارئة (Clifford, 1986b:18)، وهكذا ينحسر اتجاه تصوير الثقافة باعتبارها أنساقًا متماسكة (Ingham, 1996:50). الواضح أن مفهوم الثقافة ما بعد الحداثي يعلي من قيمة وأهمية "الذات" على ما هو اجتماعي، ويشدد على أهمية الذات في خلق الثقافة، ويؤكد كليفورد أن الثقافة علاقة دوماً وهي سجل مكتوب أو نص من العمليات الاتصالية بين الذوات (المبحوثين) في علاقات للقوة (Sangren, 1988:417).

الواضح أن أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة يدافعون عن تعددية الأصوات، والحوار والتبادلية. ويشير ميخائيل باختين إلى "أن العمليات الحوارية تنشأ وتتوالد في أي حيز خطابي ممثل بصورة مركبة كالإثنوجرافيا"، وفي الخطاب تطالب أصوات عدة بالتعبير عن ذاتها، وقد تبين أنه في الإثنوجرافيات التقليدية كان يتم كبت وكبح تعددية الأصوات وذلك من خلال منح صوت واحد وظيفة سلطوية واسعة في حين يقتصر دور الأصوات الأخرى على مجرد كونها مصادر للبيانات. وللخروج من هذا المأزق طرح أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة "الحوارية" وتعددية الأصوات (Clifford, 1986b:15) أو الإثنوجرافيا الحوارية التي تضم تنافراً من لغيمات Cacaphony وأصوات وحوارات جرت بين الإثنوجرافسي والمبحوثين (Polier and Roseberry, 1989:251). وهنا يعد الإخباري المبحوث مؤلفاً مشاركاً والإثنوجرافي كاتباً وأرشيفياً إلى جانب كونه ملاحظاً يقوم بالوصف والتفسير (Clifford, 1986b:17). وبذلك تصير الإثنوجرافيا عملية حوار يتفاوض فيها المحاورون بإيجابية حول رؤية مشتركة للواقع (Clifford, 1988:41-42). إن فكرة الأصوات والتفسيرات المتنوعة المتنافرة Heteroglossia تقوّض السلطة المطلقة للإثنوجرافي في البحث والكتابة والتفسير (Rabinow, 1986:247).

واقع الأمر أن النص الإثنوجرافي ما بعد الحداثي نص تعاوني يضطلع بتأليفه

الإخباري المبحوث والأنثروبولوجي معاً. و يتيح وجود منظورات متباينة للواقع الاجتماعي داخل النص الواحد، ليتحول النص الإثنوجرافي بذلك إلى نوع من تفاعل المنظورات (Marcus and Fischer, 1986:71). ويشجع هذا النص القراءة من منظورات مختلفة. الحوار، إذن، هو المجاز المعبر عن الاهتمامات ما بعد الحداثيّة، يمكن الاستفادة منه في نقد وتأمّل الخبرة في ثقافة أخرى بهدف إعادة تشكيل وصياغة مفهوم واقع الثقافة المحليّة (Marcus and Fischer, 1986:69). كذلك من المكونات المتأصلة في إثنوجرافيا التصوير: "الحوار" في مقابل "المونولوج" والطبيعة التعاونية، والمشاركة في الموقف الإثنوجرافي في مقابل أيديولوجية الملاحظ. فبدلاً من أن يقص الراوي أو الحاكي قصة أو حكاية معينة يكون هناك إنتاج حوارى لخطاب معين أو لقصة تتألف من أنواع وأساليب مختلفة (Manganaro, 1990:11)، وهو إنتاج يزيل الحواجز الموهومة بين الذات والموضوع ويبدد أوهام الموضوعية (Rubel and Rosman, 1994:339).

المثال الواضح هنا دراسة كيفين دوير Dwyer: "حوارات مغربية" (Moroccan Dialogues) (1982)، التي تحوي خلاصة وافية للنصوص الناتجة عن مقابلات الدراسة الحقلية، وقد اهتم دوير بالكشف عما اعتادت أن تخفيه اللغة النصية الصارمة للإثنوجرافيا العلمية الوضعية، ونقصد بيانات الدراسة الحقلية القائمة على الخبرة و الآخريّة الثقافية. كما اهتم دوير بعرض بعض اللحظات المثيرة للمشاعر كالألم الناتج عن الطلاق أو فقدان طفل أو الزواج التمس، واهتم بتقديم المادة الخام للدراسة الحقلية، وتحدى القارئ أن يكون حكماً وشريكاً في التفسير. وبروح التجريب، يشير دوير إلى أنه "يريد تقييم كتابته بعيداً عن ثنائية الأنا/الآخر"، ويتميز النص الذي صاغه بأنه غير محدود وغير مغلق ولا يخطط نموذجاً للآخرين لأتباعه. ولكن يعد هذا النص طريقة لتأكيد القابلية للنقد والطعن من جانب كل المشاركين في المشروع الإثنوجرافي: الأنثروبولوجي، والإخباري، والقارئ. وهكذا حقق دوير مهمة الكشف عن الجذور الحوارية للمعرفة الإثنوجرافية والتشكيك في قيمة التشبث بمشروع التمثيل بمعانيه التقليدية العقيمة (Marcus and Fischer, 1986:69-70).

تميل أشكال الكتابة الإثنوجرافية التي تتخذ شكلاً "خطابياً" إلى الاهتمام بتمثيل سياقات البحث ومواقف المحاور والمحادثة، على سبيل المثال اهتمت دراسة بول رابينو Rabinow المعنونة Reflections on Fieldwork in Morocco

(1977) بتمثيل موقف بحثي معين، والدراسة عبارة عن سلسلة من المقابلات أو المحادثات الفردية. وهي بذلك تشكل نوعاً أدبياً فرعياً جديداً لكتابة الأوصاف الميدانية (Clifford, 1988: 42-43). هناك أيضاً دراسة كرابنزانو Crapanzano المعنونة Tuhami: Portrait of a Moroccan، وهي تقرير عن سلسلة من المقابلات، وترفض أي فصل تعسفي بين الذات القائمة بالتفسير والآخر داخل النص (Clifford, 1988: 43). ويصور كرابنزانو الإثنوجرافيا باعتبارها عملية حوار تفاوضي بين محاورين، ويقرر أن الرؤية المشتركة لابد أن تكون حاضرة وفاعلة في أي مقابلة إثنوجرافية. ويعطي نموذج الحوار الذي يعول عليه الأولوية لتلك العناصر الخطابية المادية والذاتية المتداخلة.

الإثنوجرافيا هي خطاب تترايط مكوناته حوارياً، ولكن لا يعني ذلك - بالضرورة - أن يكون الحوار هو قالب النصي لهذه الإثنوجرافيا. وهنا يقرر كرابنزانو في دراسته Tuhami ضرورة وجود شريك ثالث حقيقي أو متخيل يعمل كوسيط في أية مقابلة بين شخصين. وأن الحوار التصوري هو في الحقيقة اختزال وتكثيف وتمثيل مبسط لعمليات مركبة متعددة الأصوات. ومن الطرق البديلة لتمثيل هذا التفاعل الخطابى فهم المسار الكلي للبحث باعتباره عملية تفاوض تبادلية مستمرة. المثال على ذلك دراسة روزالدو Rosaldo التي تحمل عنوان Illongot Headhunting؛ فقد ذهب روزالدو إلى هضاب الفلبين بقصد كتابة تقرير آني عن البناء الاجتماعي، ولكن بعد فترة قضاها في مجتمع البحث وجد نفسه مضطراً للإصغاء إلى سلسلة لا نهائية من الحكايات والسرديات المحلية عن التاريخ المحلي. وقد عمد روزالدو، صامتاً وبسأماً، إلى تدوين هذه الحكايات ليملاً بها مدونة تلو أخرى، وقد اعتبر هذه المدونات نصوصاً يمكن التخلص منها فيما بعد، ولكن، وبعد مغادرته المجتمع وبعد عملية طويلة مضيئة من إعادة التفسير، أدرك أن هذه الحكايات الغامضة قد قدمت له ما كان يبحث عنه. وهو مفهوم أفراد الإيلونجوت Illongot عن السرد والتاريخ وهو مفهوم متميز ثقافياً.

تزخر دراسات الإثنوجرافيا الحوارية بحيوية واضحة وجاذبية غير مسبوقه، وربما تكون أصدق من الإثنوجرافيات العلمية الموضوعية. ومع ذلك تنضوي استراتيجية الحوار على يوتوبيا واضحة. ويقرر النقاد أنه هذا النوع من الكتابة الإثنوجرافية قد يؤدي إلى الانزلاق إلى إثنوجرافيات تحوي اعترافات بسيطة ساذجة عن الخبرة الميدانية، أو إلى العدمية الذرية التي تحول دون التعميم

من خبرة الإثنوجرافي. "وينضوي التركيز على حوارات الأنثروبولوجي مع الإخباريين على مخاطرة كبيرة قد تفقد الأنثروبولوجي مكانته وأهميته" (Marcus and Fischer, 1986:69).

الإثنوجرافيا السردية:

خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين ازدهرت السيرة الذاتية الإثنوجرافية وما ارتبط بها من افتتان بالنظريات الفنية عن المعنى. المرجأ الخفي (Deferred Fischer, Ethnicity, 1986:194). ونتيجة للتأثير الضافي لتيار ما بعد الحداثة أعلن الإثنوجرافيون الانسحاب والتراجع إلى عالم الخصوصية، والاتجاه إلى فحص أغوار الذات وسبرها، على اعتبار أن الهدف الحقيقي للبحث الإثنوجرافي لثقافات أخرى هو اكتساب "معرفة الذات". وهنا يقول رابيناو: "إننا نتعلم عن نواتنا أو أنفسنا"، ويقول مارشال ساهلنز، في حوار مع أحد الإخباريين: "هل يمكن أن أتحدث عن نفسي كنوع من التغيير" (Kuper, 1999:542).

اهتم الرعيل الأول من إثنوجرافيين ما بعد الحداثة بخبرة الإثنوجرافي الخاصة، وتؤكد الأدبيات المعاصرة أن المعرفة الصادقة الموثوق بها هي المعرفة بالذات وعن الذات. لذلك أصبحت العلاقات الشخصية للباحث بيانات أساسية للبحث، وأساساً ابستمولوجيا لتقديم التفسيرات. وقد ظهرت "أنثروبولوجيا الذات"، وتأكيد الأهمية الابستمولوجية للانعكاسية في علاقات الدراسة الحقلية (Marcus, 1980:508). وعندما بدأت شخصية الإثنوجرافي وذاتيته تطفو فوق ظاهر النص الإثنوجرافي، ظهر نوع أدبي فرعي للكتابة الإثنوجرافية وهو الوصف الميداني المنعكس على الذات، الذي يتميز بأنه مبتكر وبسيط واعترافي وتحليلي ويفتح آفاقاً جديدة لمناقشة حزمة من القضايا الابستمولوجية والأنطولوجية والسياسية، مثال لهذا أسلوب الراوي أر الحاكي. ونتيجة لهذا التحول أخلت بلاغة موضوعية الخبرة مكانها لبلاغة السيرة الذاتية والتصوير أو الوصف الذاتي التهكمي في تقرير الدراسة الحقلية ليغدو بذلك الإثنوجرافي شخصية في رواية، ويمكنه أن يتحدث عن الأشياء والحوادث التي وقعت في أثناء إجراء الدراسة الحقلية، كالعنف والرغبة والاضطرابات والصراعات أو حتى التعاملات الاقتصادية مع الإخباريين. ويقوم الباحث بسرد تفصيلات المقابلات الشخصية بقصد كسر حدة الملل والفتور الذي يصاب به قارئ الإثنوجرافيا العلمية الموضوعية (Clifford, 1986b:14) يقرر بعض

النقاد أن هذا التحول إلى السيرة الذاتية وكتابة المذكرات الشخصية واليوميات، يعبر عن محاولة وطريقة لتجنب النظرية. وهكذا صار الاهتمام بالكيفية التي بمقتضاها يشرع الأنثروبولوجي في جمع البيانات، وبانفعالاته واتجاهاته حيال مبحوثيه، ومشاعر المبحوثين واتجاهاتهم حيال الباحث، كل ذلك صار من أبرز اهتمامات وشواغل حركة أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة (Rubel and Rosman, 1994:340).

وحديثاً حدث تحول في النوع الأدبي من إثنوجرافيا السيرة الذاتية (المذكرات) إلى الإثنوجرافيا السردية. إن المؤلف في السيرة الذاتية يعيدنا إلى زاوية معينة من حياته في مجتمع البحث، غالباً ما تكون زاوية مشرقة ومفعمة بالحيوية زاخرة بالعواطف والمشاعر والانفعالات والحوادث الفريدة الغريبة. إذ يقدم الإثنوجرافي نافذة على حياته الشخصية. من ناحية أخرى يتعامل مؤلف الإثنوجرافيا السردية مع الخبرات، ولكن إلى جانب ذلك يقدم تأملات معرفية حول المشاركة في الدراسة الحقلية والتحليل الثقافي. وفي الإثنوجرافيا السردية يعاد تمثيل العالم باعتباره مدرَكاً من خلال "راو" موجود في مكان معين ويكون حاضراً باعتباره أحد شخصيات القصة أو الرواية التي تكشف عن شخصيته الخاصة. وعلى النقيض من المذكرات الإثنوجرافية، تركز الإثنوجرافيا السردية ليس على الإثنوجرافي ذاته ولكن على طبيعة وعملية الحوار أو المقابلة الإثنوجرافية ذاتها (Tedlock, 1991:78-79).

يقرر أنثروبولوجيو ما بعد الحداثة أن الأوصاف السردية للوجود العادي المعيش أصدق وأكثر واقعية وأخلاقية من الصيغ النظرية والرؤى المقارنة التعميمية (Lindholm, 1997:748) إذ ترتبط الإثنوجرافيا السردية بأسلوب لوصف البيانات الإثنوجرافية، ويمكن تعريفها ببساطة بأنها "رواية قصة"، وتستند إلى فرضية مؤداها أن البشر يفكرون بواسطة الصور Images والقصص، ومن ثم ينبغي الاستفادة من السرد. وتتحدد أبرز ملامح الإثنوجرافيا السردية فيما يلي:

1 - تؤكد الإثنوجرافيا السردية أن جانباً كبيراً ومهماً مما يشكل البحث الإثنوجرافي يكون مكتوباً أو عرضاً شفاهياً. وعلى الرغم من أن البعض يرى أن الإثنوجرافيا هي الدراسة الحقلية، يؤكد أصحاب الإثنوجرافيا السردية أن الإثنوجرافيا تختلف عن الدراسة الحقلية، فهي وصف لجانب من ثقافة معينة أو لكل الثقافة، وهي وصف يتم في كلمات تعبر عن الخبرة الإنسانية.

2 - تشير إثنوجرافيا السرد إلى أهمية وضرورة ما أطلق عليه جيرتز "الوصف المكثف"، أو ما يطلق عليه هنري Henry "الأنثروبولوجيا ذات الحبكة الروائية"، فيقرر أن حياتنا وحياة الآخرين تتميز بوجود حبكة روائية Plot أي أنها قصة ذات معنى. ويذكر جريجوري ريك Reck "أن البشر يفعلون أكثر من مجرد الإجابة عن أسئلة في أداة استبانة، أنهم يعيشون من خلال الالتزام بقيم ومعايير معينة، ويضفون عاطفة خاصة على خبرتهم. وهكذا تمثل العاطفة جزءاً مهماً من الخبرة الإنسانية ولها مكان موضوعي في البحث والكتابة في العلم الاجتماعي". وأن فهم هذه العاطفة ونقلها أو توصيلها، ونقل حياة الغرباء وأنساق رموزهم والحبكة و الحبكة المضادة Counter-Plot التي تميز حياتهم يتطلب نوعاً من البحث الشاق لفهم الحبكة الروائية في حياة الآخر، ويتطلب أيضاً أسلوباً نثرياً ثرياً ومرناً يختلف عن الأسلوب الذي يستخدمه الأنثروبولوجيون.

3 - تتحدى الأنثروبولوجيا السردية رؤية ثنائية التقابل الأنا/الآخر.

4 - وتؤكد مكانة الخيال الإثنوجرافي وأهميته.

5 - وتدعو إلى التحليل الأنثروبولوجي للأدب في ثقافة معينة باعتباره جزءاً يتكامل مع محاولة فهم الثقافة ككل.

6 - وتعكس الأنثروبولوجيا السردية الأنثروبولوجيا الانعكاسية، وتدعمها حيث تتطلب وعياً كبيراً بالذات فيما يتعلق بقضايا ترجمة الخبرة الإثنوجرافية إلى وصف مكتوب، إنها جزء متكامل من الأنثروبولوجيا الانعكاسية التي تتطلب الفحص الجاد العميق لمعنى أن نجري أنثروبولوجيا ونمارسها. ويرى روبي Ruby أن الأنثروبولوجيا الانعكاسية توجه اهتماماً للعلاقة بين منتج الأنثروبولوجيا ونتاجها. والأنثروبولوجيا السردية باعتبارها نشاطاً انعكاسياً تولى اهتماماً واضحاً لنشاط ترجمة الخبرة المعيشة إلى وصف مكتوب (Reck,1983:8). يوصف ذلك بالتحول من "الملاحظة بالمشاركة" إلى "ملاحظة المشاركة"، والتحول إلى تمثيل الذات والكتابة عنها في تفاعلها مع نوات أخرى، وهو تحول أفرزه تحويل الأنثروبولوجيا دفعتها إلى التركيز على النشاط الموجه بالفعل، والممارسة والتفاعل والأداء وهو تحول بدأ منذ الستينيات كما قررت شيري أورتنر (Ortner,1984).

الإثنوجرافيا الانعكاسية:

تمثل ما بعد الحداثة حقبة الانعكاسية، والنسبية، ورفض المكانة المتميزة للعلم (Fox, 1991:4). ويتجسد تأثير ما بعد الحداثة في العلوم الاجتماعية بوضوح في قبول الأساليب الانعكاسية واستشرائها (Marcus, 1998:8). وتعتبر الانعكاسية من أبرز المفاهيم التي طرحها التحدي ما بعد الحداثي، وتشكل جزءاً محورياً من المشروع ما بعد الحداثي الصاعد في الأنثروبولوجيا منذ السبعينيات (Barnard, 2000:164). وتستخدم الانعكاسية كأداة لإعادة بناء وهيكل العلوم الاجتماعية والتحرر من البنى القديمة والثوابت البائدة. وقد جعلتنا مابعد الحداثة على وعي بقضية الانعكاسية الكامنة في الخطاب الأنثروبولوجي والممارسة الخطابية وتؤكد أن الباحث والمبحث ينتميان إلى فئة الظواهر نفسها: البشر.

وتعد الانعكاسية الأنثروبولوجية ما بعد الحداثة نزوة الانتقادات التي صوّبت إلى النزعة الإمبريقية والوضعية ولاحقتها، ونتاجاً لبروز تيار الوعي الذاتي في الإثنوجرافيا الذي ينطلق دافقاً منذ مطلع الستينيات من تساؤل مؤداه: لماذا يحتجب الأنثروبولوجي عن التقارير المنشورة والصورة الميدانية؟. وخلال حقبة الستينيات والسبعينيات عاد الملاحظ إلى الصورة مرة أخرى، وظهر اهتمام متزايد بخبرته وردود أفعاله باعتبارها عوامل ذات أهمية علمية بحثية. وقد خلق ذلك وعياً بالذات في الأنثروبولوجيا. وفي ذلك الوقت، وبالإضافة إلى الاهتمام الجديد آنذاك بدور الإثنوجرافي وخبرته، ظهر اهتمام آخر بين الأنثروبولوجيين بذواتهم كموضوعات للفحص والتأمل العلمي (Nash, 1972:527). وبعد سنوات من الشد والجذب والجدل العنيف استقر مصطلح الانعكاسية الأنثروبولوجية ليشير إلى "وسائل الارتداد على الذات أو الإحالة إليها" (Davies, 1999:4). والانعكاسية في الممارسة أصبحت تعني، لدى معظم أنثروبولوجيي الجناح الرمزي ما بعد الحداثي في الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية، إدراكاً لحقيقة مؤداها: إن الأوصاف والأرصاد الأنثروبولوجية الدقيقة لا يمكن أن تتم دون إدراك ووقوف على القوى الاستمولوجية والسياسية التي تُلَابس أو تحيط بكتابتها. وقد قاد ذلك إلى ظهور شكل من الكتابة الإثنوجرافية ذي ملامح متميزة، حيث تتضمن الانعكاسية مناقشة علاقات الكاتب وارتباطاته الذاتية بالحوادث، والناس، والسياقات قيد المناقشة (Whitaker, 1996:471).

وتنطلق الانعكاسية من فرضية ابستمولوجية مؤداها أن أي بحث إثنوجرافي يتناول "آخر" هو في الواقع مجرد "تعريف للذات"، وقد دفع ذلك بعض

الأنثروبولوجيين إلى كتابة إثنوجرافيات منعكسة على الذات، وتتسم بالتسامح الذاتي. وقد ركزت الانعكاسية الأنثروبولوجية على تأثير الذات في إنتاج الإثنوجرافيا والمعرفة الأنثروبولوجية، وتدعو إلى انفتاح التقليد الإثنوجرافي على إمكانيات جديدة والانفصال والانقطاع عن أيديولوجيا الموضوعية والمسافة وفكرة شفافية الواقع، وتؤكد ضرورة استيضاح وتحري الأبعاد الأخلاقية والسياسية والابستمولوجية للبحث الإثنوجرافي باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من إنتاج المعرفة الأنثروبولوجية عن الآخرين. ومصطلح الانعكاسية يتم تداوله بصورة عامة للإشارة إلى بدائل غير متحققة حتى الآن في إنتاج الإثنوجرافيا. والانعكاسية ليست قضية منهجية بقدر ما هي قضية أيديولوجية تخفي القلق والتوتر الناتج عن تيار ما بعد الحداثة الواسع الذي لم يتم التوصل لفهم متكامل له حتى الآن (Marcus, 1998: 189). ويتجلى في الأيديولوجيا الانعكاسية تأثير منهج التأويل بوضوح في أسلوب الكتابة الذي يتسم بالمكاشفة. والانعكاسية الذاتية ليست مجرد شكل من الريبورتاج (التحقيق الصحفي)، وإن الكشف عن خبرات الإثنوجرافي يمكن اعتباره أداة سرديّة تحقق فهماً أنثروبولوجياً أوضح (Mc Gee, 1996: 481).

أصبحت الأوصاف أو التقارير الذاتية المفصلة وسائل أساسية لتقويض فكرة الدراسة العقلية باعتبارها أسلوباً للبحث يضاهي المسح الاجتماعي على سبيل المثال لا الحصر. وقد فتحت هذه الانعكاسية، التي اقتصرَت في الماضي على الأطر الاعترافية للإثنوجرافيا الوظيفية، الطريق أمام منهجية التأويل التي صارت الموجه للنظرية والممارسة البحثية الأنثروبولوجية المعاصرة. وتتيح هذه الانعكاسية صياغة نص متعدد الأصوات تعاوني، وتقوم على تدعيم منظور الإثنوجرافي الذي يقوم باستبطان ذاته (Marcus, 1998: 193).

وتدعم الانعكاسية الأنثروبولوجية المعاصرة التجارب المثيرة التي تزخر بها الأنثروبولوجيا المعاصرة، خاصة فكرة النصوص الفوضوية Messy Texts عند جورج ماركوس الذي يقول: "يتميز العمل النقدي التجريبي برفض تمثيل الظاهرة عن طريق استخدام مفاهيم تحليلية جاهزة، ويتجلى هذا الرفض في ظهور إثنوجرافيات تتميز بتعددية المواقع الفوضوية أو المختلفة Messy Many Sited-ness والانفتاح المشروط لحدود موضوع الدراسة، والاهتمام بالموقع، واشتقاق/تفاوض إطارها التحليلي من الخطاب المحلي. ويدرك مؤلفو هذه النصوص أنهم منخرطون في عمل تجريبي يتصارع مع الأشكال والقوالب التقليدية للكتابة الإثنوجرافية،

ويؤكد إزالة الحواجز بين الذات والآخر، وبين المحلي والكوني ". وتنطبق النصوص الفوضوية ببساطة عن مواجهة الانضغاط الملحوظ للزمان والمكان، الذي يحدد أوضاع وظروف الشعوب والثقافات كونياً، وذلك هو الملمح الإمبريقي المحدد للظرف ما بعد الحداثي. وتحل النصوص الفوضوية محل الكلية أو المنظور الكلي الشامل في الكتابة الإثنوجرافية. وتتميز هذه النصوص بانفتاح النهاية وبعدم الاكتمال وعدم اليقين. إذ يميز هذا الانفتاح غالباً الاهتمام بأخلاقيات الحوار والمعرفة الجزئية، وينطوي على إدراك مؤداه، أن العمل لا يكون مكتملاً بدون وجود ردود الأفعال النقدية حياله، تلك التي يبديها قراء مختلفون. وتعتبر ملامح وخصائص النصوص الفوضوية ما بعد الحداثية عن اهتمام ما بعد حداثي محوري بالانعكاسية التي تفتح آفاق التجريب في النص الفوضوي (Marcus,1998:196).

إن الشكل المثير والمهم للانعكاسية الناقدة للذات في الأنثروبولوجيا هو ذلك الشكل الذي يؤكد التناص Intertextuality، أي وجود ميادين متنوعة للتمثيل (تمثيلات مختلفة) يدخلها أي مشروع إثنوجرافي ويتقاطع معها من أجل تأسيس موضوعه وتحديد صوته الخاص. بمعنى آخر إن الإثنوجرافي يعمل في عالم من التمثيلات الثقافية القائمة والموجودة بالفعل - تمثيلات المبحوثين ودارسين آخرين - ذلك هو جوهر الانعكاسية بوصفها سياسات للموقع على حد تعبير فريد مايرز Myres. واقع الأمر أن الإثنوجرافيا ما بعد الحداثية تستمد قوتها ورؤيتها النقدية من هذا الإدراك، وهي بما تتميز به من نزعة تفكيكية لا تستند إلى الوصف والتقرير المباشر (من الدرجة الأولى) والاكتشاف، وإنما تعتمد على تمثيل وإعادة تقديم التمثيلات الأخرى القائمة والتعليق عليها (Marcus,1998:197).

لا يخالجننا شك، إذن، في أن الانعكاسية تجذب انتباهنا إلى تمثيلات بديلة وتخلق وعياً ذاتياً نقدياً حيالها. كذلك تخلق الانعكاسية الذاتية وعياً بعملية وآليات إنتاج المعرفة الإثنوجرافية، وقد تُرجم هذا المذهب في الأنثروبولوجيا إلى وعي بعملية جمع البيانات ذاتها والنظريات التي تحدد الطرق والأساليب المثلى لتفسير هذه البيانات، ووعي بالنص الناتج من هاتين العمليتين (Hastrup,1995:49). يعني ذلك أن الانعكاسية قد أصبحت جزءاً من الإثنوجرافيا؛ بمعنى أن الأنثروبولوجي قد أصبح هو الإخباري لذاته؛ أي أن ذاته أصبحت جزءاً من موضوع البحث. إن مشاركة خبرة الآخرين الاجتماعية تتضمن استخدام كل الأحاسيس، وتعليق أو تحييد الحكم العقلي، لكن لا يعني ذلك إبداع رواية خيالية وتقويض أي معيار علمي.

إن مشاركتنا في خبرة الآخر وتحول ذاتياتنا إلى جزء من خبرته يتيح لنا فهم العوالم والموجودات والظواهر بصورة صادقة دقيقة. وهنا نسوق مثلاً على استخدام الإجراءات الذاتية في التفسير من دراسة روزالدو المعنونة: "الحزن وغضب صائد الرؤوس" Grief and a Head Hunter's Rage. في هذه الدراسة يروي لنا روزالدو كيف أن واقعة وفاة زوجة المفاجئ في أثناء الدراسة الحقلية، وما تبعها من حزن وأسى شديدين، قد قادته إلى فهم عميق لسلوك أفراد الإيلونجوت Illongot، الذين اعتادوا قطع رؤوس أحبائهم المقربين والاحتفاظ بها بعد أن يداهمهم الموت باعتباره الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الغضب الذي يعقب الشعور بالفجعة. هذا الفهم ما كان ليتحقق عن طريق الدراسة العامة الموضوعية لذلك السلوك أو تلك العادة. ويقرر روزالدو أن تلك الدراسة كانت بمثابة نوع من التنفيس عما اعتل في نفسه من حزن وأسى، وكيف أن ذلك قد ساعده في التوافق مع حزنه والتفاعل معه (McGee and L'warms, 1996:129).

(4) معايير الحكم ومحكات التقييم:

تؤكد ما بعد الحداثة المعايير غير المحددة والمراوغة للحكم والتقييم الجمالي. ويدعي النقاد أن رفض ما بعد الحداثة تطبيق معايير ثابتة للبحث أو الالتزام بقواعد محددة ثابتة يجعلها غير قادرة على تقييم الإنتاج الفكري. ويرد أنصار ما بعد الحداثة على هذا الاتهام - متأثرين في ذلك بمارتن هيدجر - بقولهم: "إنه لم تعد هناك قواعد أو معايير محددة لتوجيه البحث، ولا صدق مطلق، كما اختفت الأسس العامة المطلقة للحقيقة والتدقيق".

إن العلم الاجتماعي الحديث يستند إلى مجموعة من معايير ومحكات التقييم (أو لتقييم المعرفة)، من أهمها الاتساق والترابط المنطقي والتماسك والقدرة على التنبؤ، كما تُمنح الأفضلية والأولوية للنتائج المعقولة والعقلانية والمنطقية، وذلك في مقابل المقولات المتناقضة واللاعقلانية وغير المنطقية. وإن الفكرة المجردة للمعايير التقييمية الصارمة تتعارض مع الفلسفة ما بعد الحداثة العامة، إذ تستخف ما بعد الحداثة بمعايير العلم الاجتماعي الحديث ومحكاته المعروفة لتقييم المعرفة، وتزدرى أو تنتقص من قيمة الوسائل التقليدية المقبولة والمتعارف عليها التي تستخدم في الحكم على نتائج البحث الفكري بكل صوره وأشكاله سواء كان دراسة أو بحثاً أو كتابة. كما ترفض ما بعد الحداثة معيار "الاتساق" بوصفه معياراً أو محكاً أساسياً

وتنادي بإثمار النظريات غير المتسقة المتناقضة بدلاً من العكوف على غربة النظريات الجيدة وتمييزها من النظريات السيئة. ووفقاً لهذه الرؤية لا يكون هناك شيء يمكن إثباته والبرهنة عليه أو إثبات خطئه (تكذيبه)، فقد رفض أنصار ما بعد الحداثة إمكانية تقييم النظريات على أساس البيانات والملاحظة. لا حاجة، إذن، إلى المعايير مادام المرء يتخلى عن الحقيقة باعتبارها نوعاً من التطابق بين الحقائق (الواقع) والنظرية، ومادامت أصبحت الحقيقة في رأي أنصار ما بعد الحداثة تأويلية.

يغير البحث ما بعد الحداثي معنى كلمة معرفة، حيث لا ينتج هذا البحث المعرفة ولكن ينتج غير المعرفة (المجهول) والمغالطات. ويعد النشاط الفكري ما بعد الحداثي من قبيل المخاطرة أو المجازفة، ويتخذ من رفض معيار الحكم خاصة مميزة له. ولا تحاول ما بعد الحداثة الاستغناء عن المعرفة ولكن تسعى إلى تقديم أسس للناس ليقرروا بأنفسهم، وذلك لأن الحقيقة التي تقع خارج الفرد وتكون مستقلة عن اللغة، تكون مستحيلة. على ذلك لا يدعي ما بعد الحداثيون سمو وتفوق تحليلاتهم ولا يفترضون مكانة دائمة ومستمرة لكل ما يقولونه أو يكتبونه. ويرون أن من حقهم إدانة ونقد أي شيء قاموا بكتابته أو قوله في الماضي، أن المراوغة واللعب هما هدف ما بعد الحداثة؛ فهم يعملون بلا دوافع أو بواعث خفية. وقد انتقد ما بعد الحداثيون العلم الاجتماعي الحديث لإهماله الدليل أو الرأي المعتاد واليوم نجدهم يفضلون هذا الدليل المضاد كلية.

وهنا يرى البعض أن ما بعد الحداثة اتجاه مثير في حين يراه البعض الآخر اتجاهًا يبعث على السخرية والاستهجان؛ حيث يرفض العلم الاجتماعي ما بعد الحداثي أي مشروع فكري متماسك، ويتجنب الشمولية والوحدة والموضوعية.

(5) مستقبل الأنثروبولوجيا ومستقبل ما بعد الحداثة:

يتحدد مستقبل النظرية والمعرفة الأنثروبولوجية دوماً في حلقة الصراع، طويل الأمد، بين نمونجين إرشاديين: نموذج الفهم (التأويل) ونموذج التفسير. والحقيقة أن هيمنة التيارات الفكرية والنماذج الإرشادية لا تكون مستقلة أبداً عن التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي؛ إذ يتحدد مستقبل أي حركة أو اتجاه فكري بتأثير التحولات على أرض الواقع، فمثلاً أسهم سقوط الشيوعية في بلورة اتجاه ما بعد الحداثة، فهل يمكن أن يستمر هذا الاتجاه ما بعد الحداثي التعددي المدافع عن حقوق الأقليات، واحترام خصوصية الثقافات والمهمشين والديموقراطية الليبرالية واحترام الآخر ومنحه صوتاً في ظل ممارسات الولايات المتحدة في العراق؟

يطرح النقاد بعض السيناريوهات المحتملة حول مستقبل ما بعد الحداثة ومستقبل الأنثروبولوجيا:

السيناريو الأول: يؤكد عدم الاتفاق، والانقسام بين اتجاهات الأنثروبولوجيا الحديثة وأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة، حيث يرى بعض النقاد أن الشيء الذي يمكن أن يطرحه التجدي ما بعد الحداثي للعلم الاجتماعي هو تمزيق الميادين المتخصصة كالأنثروبولوجيا و علم الاجتماع إلى ميدانين منفصلين: الأول يستلهم مقولات العلوم الطبيعية، ويكرس جهوده لاكتشاف مسببات الظواهر السوسيوقافية، والثاني ينطلق من الإنسانيات (الأنثروبولوجيا الإنسانية)، وينشغل بالنقد وفحص اللغة والمعاني. وقد يؤدي ذلك إلى أن يتحاور ويتجادل مابعد الحداثيون فيما بينهم؛ مما قد يفضي في النهاية إلى تهميشهم وإقصاء كلي لاتجاه ما بعد الحداثة وعودة الاتجاه الحديث مرة أخرى في نهاية المطاف.

السيناريو الثاني: يتوقع التكامل والاتفاق بين الاتجاهات المتصارعة، ويشير إلى اتجاهات مختلطة توفيقية. فالتكاملية والتداخل هي السمة الأكاديمية ما بعد الحداثية المعاصرة سواء كانت بين التيارات الفكرية أم بين الميادين المعرفية المتخصصة. وهنا يقول أنتوني جيدنز Giddens إن الحدود الفاصلة بين ميادين المعرفة مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ قد اختلقت وتلاشت. ويتوقع هذا السيناريو حدوث تكامل بين ما بعد الحداثة والعلم الاجتماعي الحديث. وهنا يشير بعض النقاد إلى "تيار ما بعد ما بعد الحداثة" Post-PostModernism، ويشير روبرثام Robotham إلى ما يعرف بتيار "ما بعد الحداثة المعتدل" الذي يركز أساساً على النص الأنثروبولوجي باعتباره وثيقة تم تركيبها أو تأليفها، ويرى أن الرغبة في خلق "لحظة تجريبية" في الأنثروبولوجيا تدور أو تعمل في إطار النموذج الإرشادي للابستمولوجيا العقلانية (العلمية)، وذلك بهدف تجديد الدور القديم للأنثروبولوجيا وتحديثه؛ باعتبارها نقداً للثقافة والمجتمع الغربي. ويضيف أنه ليس ثمة تعارض بين الأنثروبولوجيا العلمية والأنثروبولوجيا ما بعد الحداثية التجريبية.

وتتضمن الاستراتيجية التوفيقية التخلي عن بعض الفروض ما بعد الحداثية التي تبدو عبثية - من وجهة نظر العلم الاجتماعي الحديث أو الأنثروبولوجيا الحديثة - ثم محاولة توفيق ما يتبقى من فروض مع منظور الأنثروبولوجيا الحديثة. ويكون نتيجة ذلك أنثروبولوجيا توفق بين متطلبات الموضوعية العلمية وإضفاء المشروعية على المنهجيات التجديدية الذاتية والنسبية. وتجمع هذه التوليفة بين

البحث الذي يركز على الصرامة والعقل من ناحية، والبحث الذي يرتبط بالعاطفة والحدس من ناحية أخرى. ويعتبر هذا المشروع التوفيقى ذا قيمة كبيرة، وقد يؤدي إلى التبادل والتعاون المثمر، والإثراء والتخصيب المتبادل بين الحداثة وما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا.

لا يخالجنّا شك في أن الأحداث التي سوف تقع على صعيد الواقع سوف يكون تأثيرها غائراً على مستقبل ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا. فلربما تؤدي بعض التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المستقبلية إلى تطوير وتعميق هذا التيار في العلوم الاجتماعية أو قد تؤدي تطورات أخرى إلى إعاقة تطوره، ولم يغد واضحاً الآن ما إذا كان هذا الفكر سيتهادى بعد الاعتداء الأمريكي الغربي على الآخر غير الغربي والسعي إلى تكبيله، ونهب ثرواته وتغيير نظامه وثقافته عنوة - وذلك من منطلق أن هذا الاعتداء يقوض دعاوى التعددية الديمقراطية ما بعد الحداثة، وتحرير الآخر ومنحه صوتاً وسلطة على موجوداته الاجتماعية والثقافية - أم ستتعمق مقولاته بعد محاولات أمريكا عسكرة العالم وتفتيت القوميات والثقافات والسيطرة عليها. إن القوى الثقافية والمجتمعية، التي فرضت ما بعد الحداثة ووضعته في طليعة الجدل الفكري المعاصر، قوية ومؤثرة ويستشعر البعض أنها لن تتلاشى سريعاً. فما زالت الكوارث الإيكولوجية مستمرة، وكذا التغير السريع واللامحدود والتطورات التكنولوجية غير العادية التي فرضت معضلات وإشكاليات أخلاقية. ومادامت هذه التحولات مستمرة فإننا نتوقع استمرار تيار ما بعد الحداثة قوياً، خاصة أن الشؤون والمسائل الإنسانية قد أصبحت أكثر تعقيداً بصورة تقف أمامها النماذج الإرشادية التقليدية عاجزة.

ويقرر عدد غير محدود من النقاد أن ثمة مؤشرات تؤكد خفوت وضعف تأثير ما بعد الحداثيين المشككين في العلوم الاجتماعية، وأن تحليل هؤلاء يبدو عبثياً يثير السخرية والاستهجان. ولكن ذلك لا يعني بحال أن ما بعد الحداثة سوف تختفي أو أن مساءلة العلم والعقل سوف تتوقف، ولكن ما يعنيه أن اتجاه ما بعد الحداثة الإيجابي سوف يكون تأثيره كبيراً في المستقبل. حيث نتوقع أن يُحترم العلم ويستخدم بصورة نقدية وأقل سذاجة من استخدامه في الماضي، كذلك سوف تصبح التوقعات المرجوة من قيمة العلم محدودة ومنتجاته. ويتوقع أن يكون هناك إدراك للسياق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للعلم واستخداماته وإساءة استخدامه. كما يتوقع أن يحظى أسلوب البحث الكيفي السردى بقبول جمهور عريض من الباحثين وإعجابه.

مناقشة النتائج:

يمكن تلخيص أهم نتائج هذه الدراسة فيما يلي:

1 - كشفت الدراسة عن تحقق الفرض الأول جزئياً؛ بمعنى أن تيار أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة قد شكل جزءاً من حركة النقد المحتدمة في الأنثروبولوجيا منذ ستينيات القرن العشرين، لكنه استمد اندفاعه من تيار ما بعد الحداثة الأوسع الذي يكتسح ميادين متنوعة كالعمارة والفلسفة والنقد الأدبي والتاريخ منذ نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضي بتأثير بعض الظروف والتحويلات البنائية والفكرية التي كان من أبرزها تهاوي أفكار نهاية الأيديولوجيا، وثورة الطلاب، وسقوط الشيوعية وما أحدثه من زعزعة للقناعات الراسخة المستقرة. وقد كان هذا السقوط المدوي بمنزلة اللحظة الحاسمة في تحقيق ما بعد الحداثة للهيمنة الفكرية والأكاديمية كنموذج إرشادي ناضج.

2 - كشفت الدراسة عن تحقق الفرض الثاني المتمثل في نبذ ما بعد الحداثة لتصورات الأنثروبولوجيا الحديثة ومقولاتها (1920-1975). وذلك على اعتبار أن ما بعد الحداثة تمثل رؤية للعالم تتميز بالتعددية ونسبية المعرفة، والتفتت والتجزؤ، وتلاشي أحلام العمومية الحديثة والموضوعية. وتلك رؤية تناقض الأسس التي نهضت عليها الأنثروبولوجيا الحديثة موروثة عصر التنوير (العلم، العمومية، العقلانية).

3 - كشفت نتائج الدراسة عن انتقاد أنثروبولوجي ما بعد الحداثة للمنهجية الحديثة، وإعادتهم النظر في مرتكزات المنهجية الحديثة، وبحثهم عن أساليب منهجية جديدة تتخلى عن أوهام اليقين المطلق، الذي ينسب خطأً إلى المعرفة العلمية الطبيعية. وتضع المنهجية ما بعد الحداثة التأويل وأساليب البحث الانعكاسية في طليعة منهجية الأنثروبولوجيا المعاصرة. وترتكز أساليب البحث ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا على أساليب الوصف المكثف الكيفية، وتضع الباحث في مركز استراتيجيات البحث ما بعد الحداثة (See, Corbin and Strauss, 2008: VIII-IX).

4 - كشفت الدراسة عن أن المنهجية ما بعد الحداثة تتكامل مع المنهجية الحديثة ولا تقصدها كلية. على سبيل المثال، توفر استراتيجيات الإثنوجرافيا متعددة المواقع إمكانية دراسة موضوعات البحث المتحركة في عالم ما بعد الحداثة الكوني كالهجرة الدولية واللاجئين. كذلك تحقق الاستراتيجيات الحوارية والتجريبية تعرف

المنطق الداخلي للثقافة والمعاني التي يخلعها المبحوثون على عوالمهم وموجوداتهم الاجتماعية والثقافية. وتتخذ الأنثروبولوجيا المعاصرة اتجاهاً توفيقياً يجمع بين الاتجاهين النقدي ما بعد الحداثي والاتجاه العلمي الحديث، أو بين الأنثروبولوجيا الإنسانية والأنثروبولوجيا العلمية، أو بين الاتجاهات السببية واتجاهات المعنى الثقافي أو بين اتجاهات التفسير واتجاهات التأويل.

5 - كشفت الدراسة عن أن الإطار الفكري ما بعد الحداثي ينضوي على تناقضات عدة من أبرزها:

- تزدري ما بعد الحداثة جميع الدعاوى التي تنادي ببناء النظرية. ومع ذلك فموقفها المعادي للنظرية هو في حد ذاته، موقف نظري. والنظرية إذا كانت غير ذات قيمة ولا طائل منها، وإذا كانت أي محاولة لربط الحقيقة بالنظرية يتوجب رفضها وإنكارها، فإن هذه الفروض يجب أن تطبق على أي جهد نظري بما في ذلك نظرية ما بعد الحداثة التي تسعى إلى تقويض النظرية الكبرى.

- على الرغم من تأكيد ما بعد الحداثة أهمية اللاعقلاني، وتعبيرها عن شكوك عميقة حيال أدوات التنوير الفكرية: العقل والمنطق والعقلانية، يستخدم أنصار ما بعد الحداثة هذه الأدوات في تحليلاتهم، على سبيل المثال، يعتبر التفكير عملية منطقية، عقلية، وتحليلية.

- لا يصدر ما بعد الحداثيون أحكاماً ولا يحاولون تقييم التفسيرات على أنها جيدة أو سيئة، صائبة أو خاطئة. ولكن عندما يقررون أن العلم الاجتماعي يجب أن يركز على ما يتم إقصاؤه أو استثنائه، وما يتم تجاهله، وعلى الهامشي والصامت أو الذي فُرض عليه الصمت، وعندما لا يسيرون إلى بناء داخلي للقيم، فإن ذلك يعني أن ما بعد الحداثة تفضل جماعات أو منظورات معينة على أخرى. ويتناقض ذلك ويتصارع مع رفضهم المفترض لتحقيق أولوية أو أفضلية. وعندما تلمح ما بعد الحداثة إلى أن منظورها أسمى من مشروع التنوير، فإنها تؤكد بذلك أن تفسيرها أفضل من أي تفسير آخر. لقد أفضت محاولات ما بعد الحداثيين الهروب من تسلطية التفسير، إلى وقوعهم في منظور تسلطي يلمح إلى صحة رؤاه الخاصة؛ أي أن المغالاة في تفادي التسلطية قد أدت بهم إلى الوقوع في شرك التسلطية والتعسف.

- يقرر ما بعد الحداثيون أن العلم أيديولوجيا غربية، وأن النزعة المادية هي الأساس الأيديولوجي المسلم به للنزعة العلمية الغربية. ومع ذلك فمن المسلم به

أيضاً فكرة غربية مؤداها: أن "الثقافي" و "الاجتماعي" يمكن تفسيرهما بالإشارة وبالإحالة إلى الذات، والأفراد، والخبرة. وبهذا المعنى يكون الفكر ما بعد الحداثي، في كل أجزائه وقسماته، فكراً أيديولوجياً وغريباً تماماً مثل النزعة العلمية والمادية التي يحاول اتجاه ما بعد الحداثة تقويضها وهدمها.

- يؤكد ما بعد الحداثيون البينصية أو التناص، ومع ذلك تتعامل معظم تصورات ما بعد الحداثة، خاصة تلك المتأثرة بجاك دريدا، مع النص بمعزل عن النصوص الأخرى.

- يرفض العديد من أنصار ما بعد الحداثة المحكات الحديثة لتقييم النظرية. لكن عندما يتوصل ما بعد الحداثيون إلى نتائج من أي نوع، مثل القدرة على تحديد الأسئلة التي يحاول العلم الاجتماعي الحديث الإجابة عنها، فإنهم بذلك يمتلكون محكات ثابتة للحكم؛ بمعنى أنهم يمتلكون محكات، ربما ضمنية، يصدرن على أساسها آراءهم وأحكامهم. وإذا كانت هذه المحكات موجودة بالفعل، فإنهم بذلك يؤمنون ضمناً بأن هناك بعض اليقين في العالم.

- على الرغم من تحذير ما بعد الحداثة من تناقضات الحداثة نجدها ترفض الالتزام بمعايير الاتساق ذاتها. وينكر ما بعد الحداثيون بصراحة أنهم في حاجة إلى بذل جهد خاص لتحاشي التناقض الذاتي.

- يؤكد ما بعد الحداثيون الانتقائية النظرية، وهي خاصية مميزة للأنثروبولوجيا، ويصفها روبرت ميرفي بأنها تجعل الأنثروبولوجيا أكثر توافقاً وتكيفاً مع موضوع دراستها. ويؤكدون كذلك أن ما يقولونه أو يكتبونه هو مجرد سردية محلية، بيد أن عدداً محدوداً من أنصار ما بعد الحداثة يتخلى كلية عن دعاوى الحقيقة الخاصة بما يكتبونه، وأن ذلك كله يكشف عن تناقض داخلي - ذاتي كامن في اتجاه ما بعد الحداثة.

- ترفض ما بعد الحداثة جميع الثنائيات: الذات/الموضوع، العقل/الجسد، وهلم جرا. بيد أن آراءهم تحمل في الواقع تأكيد ثنائيات أخرى، على سبيل المثال، يفرضي تأكيد ما بعد الحداثة على النسبية الراديكالية إلى بناء ثنائية بين النسبية والموضوعية، ومن ثم تشييد نوع من التراتبية التي يسمو فيها طرف على آخر. إن الاتجاهات التأويلية بعامة، ومنها اتجاه ما بعد الحداثة، تُنتقد على أساس أنها غير مسؤولة من الناحية الفكرية، وتفترق إلى القدرة على التنبؤ والتحقق

والإثبات، وعلى توليد قوانين وتعميمات. كما تنتقد لتحديها المنطق والحقيقة، ولأنها ذاتية أنانية؛ أي أنها تشكل صورة خاصة معينة من الأيديولوجيا البرجوازية الفردية، وتتسم بالانسحاب من العالم إلى النص. تؤكد هذه الاتجاهات أيضاً نسبة كل شيء ما عدا موقفها أو موقعها الخاص (Waston, 1991: 73-74). ومن النقاد الذين سخرُوا من نظرية ما بعد الحداثة إرنست جيلنر Gellner، الذي فند ما أطلق عليه "النسبية العقلية لنظرية ما بعد الحداثة"، وارتأى أن نظرية ما بعد الحداثة نسبية (Barnard, 2000: 172). ويعبر جيلنر عن اشمئزازه من فشل منظري ما بعد الحداثة في قبول الخطاب العقلي أو مفهوم القيود المؤسسية (البنائية) الخارجية بقوله: "وفي نهاية المطاف يبدو المعنى الإجرائي لنظرية ما بعد الحداثة على النحو الآتي: رفض تأييد أي وقائع موضوعية، أية أبنية اجتماعية مستقلة واستبدالها بالمعاني" (Barnard, 2000: 172).

وقد هاجم الأنثروبولوجي البريطاني إرنست جيلنر النسبية وما بعد الحداثة باعتبارهما اتجاهين ذاتيين يتميزان بالانغماس الذاتي. ويقول جيلنر: إن ما بعد الحداثة ترى الأنثروبولوجيا تحولاً من الوضعية (التي يرى ما بعد الحداثيون أنها إيمان بالحقائق الموضوعية) إلى الهرمنيوطيقا أو التأويل. وتمثل ما بعد الحداثة كذلك إحياء للنزعة الرومانسية. وتلك رؤية متطرفة هاجمها نقاد كثيرون. علاوة على ذلك انتقد جيلنر أنثروبولوجيي "كتابة الثقافة" وإسهاماتهم نظراً لافتقارها إلى الدقة، وقد خلص إلى نتيجة مؤداها أن المعنى الإجرائي لما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا يشير إلى رفض تبني فكرة الحقائق الموضوعية، والأبنية الاجتماعية المستقلة، وقد استبدلت بذلك البحث عن المعاني، سواء معاني موضوعات البحث أو معاني البحث.

وعلى الرغم من الانتقادات التي جوبه بها تيار ما بعد الحداثة ومقولاته يكون من قبيل الإجحاف إنكار تأثيره في العلوم الاجتماعية خاصة الأنثروبولوجيا، وتأثيره في توسيع آفاق العلم الاجتماعي وطاقاته النقدية وموضوعات اهتمامه. ولا يغيب عن عين الرائي أن أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة قد طرحت أساليب كيفية جديدة للبحث تحقق الوصول إلى المعاني الثقافية وتعرف المنطق الداخلي للثقافة. ويعد النقد ما بعد الحداثي مؤشراً إيجابياً على نضج الميدان الأنثروبولوجي؛ أي وصوله إلى مرحلة النضج التي تمكنه من فحص مقولاته ومركزاته المنهجية والمعرفية.

خلاصة القول إن هذه الدراسة قد حاولت أن تلفت الانتباه إلى تصورات أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة للمنهج، وانتقادها للمقولات الأساس في الأنثروبولوجيا. والدراسة في مجملها دعوة إلى التجريب في طرائق وأساليب بحثية جديدة، والاستجابة للجدل الدائر في الدوائر الأنثروبولوجية، وإفساح المجال لأساليب البحث ما بعد الحداثية في الأنثروبولوجيا العربية.

المراجع:

- Abu-Lughod, L. (1991). Writing against culture, Quoted in, Fox, R.G. (Ed.), *Recapturing anthropology-working in the present*, School of American Research Press, Santa Fe, New Mexico.
- Abu-Lughod, L. (1993). *Writing women's world: bedouin stories*, University of California Press.
- Ardener, E. (2000). Social anthropology and the decline of modernism (unpublished - Internet).
- Barnard, A. (2000). *History and theory in anthropology*, Cambridge University Press.
- Bauman, Z. (1988). *Is There A Postmodern Sociology?*, *Theory, Culture & Society*, Vol.5: 217-237.
- Bell, D. (1989), *Resolving the contradictions of modernity and modernism*, *Society*, Vol.27, n.(1), Nov. Dec: 66-75.
- Bilton, T., Bonnet K., Jones P., Lawson T., Skinner D., Stanworth M., Webster A., (1995). *Introductory sociology*, Macmillan Press, Ltd.
- Bishop, R. (1996). Postmodernism, In, Levinson David, Ember Melvin (Eds.), *Encyclopedia of cultural anthropology*, Henry Holt and Company, New York, - Vol.(3): 98-993.
- Boulin, J.R., Stromberg P.G. (1997). Representation and reality in the study of culture, *American Anthropologist*, Vol. 99., N. (1): [123-134].
- Browning, G., Hakil A. & Webster F. (2000). *Understanding contemporary society: Theories of the present*, London, Sage Publication.
- Carrier, J.G. (1992). Occidentalism: the world turned upside-down, *American Ethnologist*, Vol.19, no.2: [195-212].
- Carrithers, M. (1990). Is Anthropology art or science?, *Current Anthropology*, Vol.31, - no(3), June: 263-282.
- Cheal, D. (1996). *New poverty-families in postmodern society*. Routledge.
- Clifford, J., (1980). Field work, Reciprocity and making of ethnographic texts, *Man*, Vol.15: [518-532].
- Clifford, J. (1986a). On ethnographic allegory, Quoted in, Clifford J., Marcus G., *Writing Culture, The poetics and politics of ethnography*, University of California Press.
- Clifford, J. (1986b). Partial truths, Quoted in, Clifford, J., Marcus, G., *Writing culture, the poetics and politics of ethnography*, University of California Press.

- Clifford, J.(1988). *The predicament of culture:Twentieth century ethnography, Literature and Art*, Harvard University Press.
- Corbin Juliet & Strauss Anselm (2008). *Basics of qualitative research*, London: Sage Publications.
- Cuff E.C.,Sharrock W., Francis D.W.(1988). *Perspectives in sociology*, Routledge, London, New York,.
- Davies,C.A.(1999). *Reflexive ethnography, A guide to researching selves and others*, London. Routledge.
- Dernasconi, R. (1996). Deconstruction. In, Rorchert Donald M.(Ed.), *Encyclopedia of Philosophy*, New York: Macmillan Reference.
- Doody,R.S.(1991). Aphasia as a postmodern anthropological discourse, *Journal of Anthropological Research*, Vol. 47, n. 4, Fall: 285-303.
- Dwyer,K.(1979). The dialogic of ethnology, *Dialectical Anthropology*,Vol.4: [205-224].
- Escobar,A. (1993). The limits of reflexivity: Politics in anthropology's post-writing culture era, *Journal of Anthropological Research*,Vol.49,n.4: [377-381].
- Fischer, M., J.(1986). Ethnicity and the postmodern arts of memory,Quoted in, Marcus &Clifford (Eds.),*Writing culture -politics and poetics of ethnography*, Berkely: University of California Press,.
- Fox, R.G.(Ed.) (1991). *Recapturing anthopology-working in the present*, New Mexico: School of American Research Press.
- Friedman,J.(1992). The past in the future, History and the politics of identity, *American Anthropologist*,Vol.94, no. (1): 837-859.
- Geuijen,K.(ed.)(1995). Postmodernism and anthropology: Theory and practice, Van Gorcum, Assen, the Netherlands,,[reviewed by Nicholas Gessler, Internet].
- Greenfield,P.M.(2000). What psychology can do for anthropology, or why anthropology took postmodernism on the chin, *American Anthropologist*, Vol. 102(3), Sep: [564-576].
- Harris,M.(1999). *Theories of culture in postmodern times*. Oxford: Atamira Press.
- Harris,O.(1996). Temporalities of tradition, Reflections on a changing anthropology, Quoted in, Hubinger V.,Grasping the changing world- anthropological concepts in the postmodern era, London: Routledge.
- Hasturp,K.(1995). *A Passge to anthropology, between experience and theory*, London: Routledge.
- Heelas,P.(1998). *Religion, Modernity and postmodernity*,Blackwell Publishers, Ltd.
- Herzfeld,M.(2001). *Anthropology-theoretical practice in culture and society*, Blackwell Publishers, UNESCO.
- Honderich, T. (1996). Determinism and freedom, Quoted in, Rorchert Donald M.(Ed.), *Encyclopedia of Philosophy*, Macmillan Reference.
- Ingham,M.(1996). *Psychological anthropology-reconsidered*,CambridgeUniversity Press.
- Jameson,F.(1989), *Marxism and postmodernism*, *New Left Review*, Vol.176, July, August: [31 - 45].

- Kuper,A.(1999). Culture, Identity and the project of ACo(s)mopolitan anthropology", *Man*,Vol.29,n.3: [537 - 554].
- Lash,S. (1990). *Sociology of postmodernism*, London: Routledge.
- Lewellen,T.C.(2002). The anthropology of globalization, London: Bergin& Garvey.
- Lindholm,C.(1997). Logical and moral dilemmas of postmodernism, *Journal of the Royal Anthropological Institute*,Vol.3, n.4: 747-760.
- Luynch,M.(2001). *The nature of truth, classic and contemporary perspectives*, Cambridge, Massachusetts Institute of Technology.
- Manganaro, M.(1990). Textual play, Power, and culture critique: An orientation to modernist anthropology, Introduction to, Marc Manganaro(Ed.), *Modernist Anthropology from Field Work to Text*, New Jersey, Princeton University Press.,
- Marcus,G.E.&Clifford,J.(Eds.)(1986). *Writing culture-politics and poetics of ethnography*, Berkely, University of California Press.
- Marcus,G.E.and Fischer,M.J.(Eds.)(1986). *Anthropology as cultural critique, an experimental moment in the human sciences*, Chicago: The University of Chicago Press.
- Marcus,G.E.(1980). Rhetoric and the ethnographic genre in anthropological research", *Current Anthropology*, Vol. 21, no. (4): 507-510.
- Marcus,G.E.(1998). *Ethnography through thick and thin*, New Jersey: Princeton University Press.
- Margolis,J.(1996). Essentialism, In, Payne Michael (Ed.), *Dictionary of cultural and critical theory*. Cambridge: Blackwell Publishers.
- McGee,R.J. & L'Warms, R.(1996). *Anthropological theory*. Mayfield Publishing Company.
- Murphy,R.E.(1971). *The dialectics of social life, Alarms and excursions in anthropological theory*. New York: Basic Books, Inc., Publishers.
- Nash,D.&Wintrob,R.(1972). The Emergence of Self Consciousness in ethnography, *Current Anthropology*, Vol.13,n. 5: [527- 542].
- Nicholson,L.&Seidman,S.(1996). *Social Postmodernism-beyond identity politics*, Cambridge. Cambridge University Press.
- Nowotny,H.(Ed.)(1994). *Time: the Modern and Postmodern Experience*, Polity press.
- O'Meara,T.(1989). Anthropology as empirical science, *American Anthropologist*, Vol. 91: 354-369.
- Ortner,S.(1984). Theory in Anthropology Since the Sixties, *Comparative Studies in Society and History*, Vol.26,n.(1): 66-126.
- Polier,N.&Roseberry,W.(1989). Tristes Tropes: Postmodern anthropologists encounter the other and discover themselves, *Economy and Society*, Vol.18, n.(2): [245 - 264].
- Rabinow,P.(1986). Representations are social facts: Modernity and postmodernity in anthropology, Quoted in, Clifford James and Marcus George E., *Writing culture, the poetics and politics of ethnography*, University of California Press.
- Reck,G.G.(1983). Narrative anthropology, *Anthropology and Humanism Quarterly*, Vol. 8, no.(1): 8-12.

- Reddy, W.M.(1992). Postmodernism and the Public Sphere: Implications for an Historical Ethnography, *Cultural Anthropology*, Vol. 7 (2): 135-168.
- Ritzer, G.(1996). *Modern sociological theory*, McGraw Hill, Inc.
- Rosenau, P.M.(1992). *Postmodernism and the Social Sciences, Insights, Inroads and Intrusions*, New Jersey: Princeton University Press.
- Rubel, P. & Rosman, A.(1994). The past and the future of anthropology, *Journal of Anthropological Research*, Vol. 50, no. 4: [335 - 343].
- Said, E.(1989). Representing the colonized: Anthropology's interlocutors, *Critical Inquiry*, Vol.15: (205- 250).
- Sangren, P.S.(1988). Rhetoric and the authority of ethnography, Postmodernism and the social reproduction of texts, *Current Anthropology*, Vol. 29, No.(3): [405 - 455].
- Schmidt, N.J.(1984). Ethnographic fiction: anthropology's Hidden literary style, *Anthropology and Humanism Quarterly*, Vol. 9 (4): 11-14.
- Strathern, M.(1987). Out of context: the persuasive fictions of anthropology, *Current Anthropology*, Vol.28, no (3): 81-251.
- Tedlock, B.(1991). From participant observation to the observation of participation, the emergence of narrative ethnography, *Journal of Anthropological Research*, Vol.47, no.1: [69 - 93].
- Trouillot, M.P.(1991). Anthropology and the Savage Slot: the Poetics and Politics of Otherness, Quoted in, Fox, R.G.(Ed.), *Recapturing anthropology-working in the present*, New Mexico, School of American Research press, Santa Fe.
- Turner, G.(1992). *British culture studies*, London: Routledge.
- Tyler, S., A.(1984). The poetic turn in postmodern anthropology: the poetry of Paul Friedrich, *American Anthropologist*, Vol.86: [328-336].
- Yeatman, A. (1994). *Postmodern revisionings of the political*, New York, Routledge.
- Young, R.(1990). *White mythologies, writing history and west*. London, Routledge and.
- Wagner, P.(2001). *Postmodernism*, London: Edward Arnold, A Division of Hodder & Stoughton.
- Waston, G. (1991). *Rewriting culture*, Quoted in, Fox Richard G. (Ed.) *Recapturing Anthropology - Working in the Present*", Santa Fe, New Mexico: School of American Research Press.
- Wagha, P.(1992). *Postmodernism*. London: Edward Arnold, A Division of Hodder & Stoughton.
- Whitaker Mark, P.(1996). Reflexivity, Barnard A. and Spencer J. (Eds), *Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology*, London: Routledge.

قدم في: مايو 2008

أجيز في: يوليو 2009



Methodology in Postmodern Anthropology: Descriptive and Analytical Preview

Sayed M. Faris*

This study discusses postmodernism as a western cultural and intellectual phenomenon, which embodies a fierce critique pointed at the axial principles and foundations of the western modernism project, and promotes itself as the antithesis of modernism. The adjective "postmodern" has been appended to a staggering array of phenomena, from the arts to the media to the world in which we live today. Post-modernity may be most easily defined as conditions relevant to many living in present (postmodern) times. These conditions include the circulation of people (via mass transit), information (via computers and telecommunications), and images and ideas (via mass media) at unprecedented rates. Postmodernity concentrates on the tensions of difference and similarities erupting from these globalization processes. Postmodern Anthropology is one of postmodernism's main currents in the social sciences. It refuses and breaks with the pivots of scientific modern Anthropology (1920-1975) and turns it down. It also represents a transparent disparagement of western science and technology, and other strands that follow from this central tenet include:

- (a) The representation of social life as a "text", and the elevation of text and language as the fundamental phenomena of existence.
- (b) The Application of literary analysis to all phenomena.
- (c) The questioning of reality and the adequacy of language to describe reality.

* Sociology Department, Faculty of Arts, Beni-Suef University, Egypt.

- (d) Disdain for or rejection of method.
- (e) Rejection of broad theories or meta-narratives.
- (f) Advocacy of polyvocality.
- (g) Focus on power relations and cultural hegemony.
- (h) Rejection of western institutions and achievements.
- (i) Extreme relativism and a tendency toward nihilism.

This study focuses on postmodernism's claims against modernist epistemology and the problem of methodology in postmodern anthropology, while evoking a critique and developing new research strategies, such as a reflexive ethnography, multi-sited ethnography, deconstruction, and interpretation.

Key words: Postmodern anthropology, Postmodern methodology, Deconstruction, Interpretation, Multi-sited ethnography, Ethnography of evocation, Polyphonic ethnography, Narrative ethnography, reflexive ethnography.